باب الجنة

بسم الله الرحمن الرحيم

يوسف دورسون

باب الجنة

رواية

دار المكتبي

الطبعة الأولى
2020 - 1441

Cennet Kapisi
باب الجنة

YUSUF DURSUN
يوسف دورسون

ترجمة
ياسمين الضامن

مراجعة وتحرير مركز التعريب والبرمجة
بإشراف الدكتور غياث المكتبي

قامت دار المكتبي بترجمة هذا الكتاب الصادر عن

Nar Yayınları
ÇOCUK

منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

محفوظة جميع الحقوق

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email: daralbaraem@gmail.com almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

عصير عنبٍ بلا سكر

كان المشاغبونَ في إستنبول يقضون أوقاتهم في البحث عن طرق لتسهيلِ العيش ، وكانت الحياة في هذه المدينة غير محتملة في كثير من الأحيان ، ولاسيّما حركة المرور ، إلى جانب ذلك لم يكن الوقت الباقي بعد الدروس كافيًا للتّنزه في أماكن إستنبول الرائعة .

من وجهة نظرهم كان هذا السؤال يشغل تفكيرهم : « بأي عذر سوف نتغيب عن المدرسة » ؟ لم يجدوا شيئًا مناسبًا للسجلّ حتى الآن ، لكنّهم يتابعون العمل ، ولهذا السبب تأخّروا اليوم عن الدرس ، ولحسن الحظ تصرّف السيد برام بنضج ، حتى إنه قال أيضًا : إنّ ما فعلوه نوع من البطولة ، إذا كانوا كذلك فعليهم التصرّف كأبطال ، ماذا كان الأبطال يفعلون ؟ كانوا ينجحون في فعل الأشياء التي لا أحد ينجح فيها بسهولة ، وبما أننا أبطال لدينا عمل يجب علينا النجاح فيه .

ردَّ آتاكان على جملة حلية هذه كالآتي :

نعم معك حق ، يجب علينا إيجاد طرق لتسهيل المعيشة .

ووافق مرتجان آتاكان ، لكنّ حلية لم تكن تفكّر هكذا ، قالت :

لا أيها السّادة ، أحدثكم عن الواجب الذي أعطاه لنا السيد برام .

كان المشاغبون يواجهون حقيقة الحياة والتلمذة وجهًا لوجه ، لا شيء يمكنهم فعله ، لقد أعطوا وعدًا ، سيُفعل هذا الواجب ، ومن جهة أخرى السيد برام عندئذٍ سيقبل اعتذاراتهم ، وبما أنّ أستاذ العلوم الاجتماعية تصرف بنضجٍ فليس من اللائق أن نحزنه .

وعندما نهض المشاغبون من جثومهم عند أسفل الجدار ، تعلّقت عيونهم بملصق على لوحة الإعلانات ، وكان لابد أن يكون واحدًا من الملصقات الإخبارية للفعاليات الاجتماعية المتكررة في المدرسة ، وعندما نظروا جيدًا توضح لهم أنه ملصق إعلاني عن رحلة للصف الثامن إلى تشنكلة ، لا شيء يثير الدهشة بهذا الموضوع ، كانوا قد رأوا إلى الآن العديد من ملصقات الرِّحَل ، ولكنّ أيًا منها لم يشد انتباههم حتى اليوم . كان في الملصق صورة لمحمدين يقفان متجاورَيْنِ ، كان واحد منهم أطول من الآخر ، ورغم العجز في وجهيهما كان هناك تعبير عزم قويّ . صُلِّحت ملابسهم وخاصة البناطيل من أربعين مكانًا ، كانت أحذيتهم مثقوبة من النهايات ، دون الالتفات إلى أيّ شيء كانا في هيئة استعداد ،

ينتظران من القائد الأمرَ ، ربما كان أمر الموت !

كان على الجانب الأيسر للصور جدول .

هذه قائمة طعام المحمدين في حرب تشنكلة عام ١٩١٥م ، هكذا كانت :

٤٣ . فوج المشاة ١ . طابور المشاة

١ـ لائحة الطعام لفرقة المشاة :

١٥ حزيران ١٩١٥

الصباح : عصير العنب

الظهر : لاشيء

المساء : عصير العنب

الخبز : كامل

٢٦ حزيران ١٩١٥

الصباح : لاشيء

الظهر : لاشيء

المساء : حَساء القمح بالزيت .

الخبز : كامل

١٨ تموز ١٩١٥

الصباح : عصير العنب

الظهر : لاشيء

المساء : لاشيء

الخبز : نصف

٢١ تموز ١٩١٥

الصباح : نصف خبز

الظهر : لايوجد

المساء : عصير العنب بلا سكر

الخبز : لايوجد

أسفل هذه اللائحة المؤلمة ملاحظة مكتوبٌ فيها : « اعتبارًا من ٢١ تموز ١٩١٥ بأمرٍ من الجيش للعسكر سوف يصبح الخبز نصفًا ؛ لأنه لم يبق طحين وخبز » .

تفحص المشاغبون اللائحة باهتمام كبير ، واستيقظت مشاعر مختلطة في داخل كل منهم ، فهؤلاء الجنود تركوا أرواحهم في تشنكلة من أجل الوطن ، إذا كان الأمر كذلك ، فإنّ تلك الأرض تستحقّ المشاهدة ، كان يجب تتبع آثار محمد والبحث عن أسرار

الحرب والنصر ، تبادل المشاغبون النّظر إلى بعضهم بتبسم .

كان واجب السّيد برام الذي طلبه قد أُنجز نصفه ؛ لأنّ اتخاذ قرار العمل هو نصف النجاح .

وكان طلب الإذن من العوائل للذهاب إلى الرحلة أسهل قسمٍ ، سلّمَ المشاغبون الأوراق اللازمة ونقود الرحلة إلى إدارة المدرسة في اليوم التالي مباشرة .

قبل الرحلة كانوا يتكلمون في الاستراحات عن الواجب الذي سيكتبونه ، وتقاسموا العمل فيما بينهم ، وحددوا الأشياء التي سيأخذونها ، وأخذوا ينتظرون يوم الرحلة .

* * *

بوصلة جدّي الكبيرة

كان الطلاب الذين سينضمّون إلى رحلة تشنكلة ينتظرون ساعة التحرك في حديقة المدرسة ، وبعض العوائل جاءت لتوصِل أطفالها .

كان لدى الجميع توتر لطيف ، أمّا المشاغبون فقد كانوا يتحدثون فيما بينهم في إحدى الزوايا ، وبحسب مظهرهم كانوا يتكلمون في موضوع مهم ، سأل آتاكان :

ـ هل أُخذت الكميرات ؟

ـ أَخذتها .

ـ أجهزة التصوير ؟

ـ جاهزة .

ـ أجهزة تسجيل الصوت ؟

ـ أخذناها .

ـ أجهزة الهاتف النقال ؟

ـ هل تسأل عن هذا ؟ هل يوجد حياة بلا هاتف ؟

- وأجهزة الشحن ؟

- حسنًا آتاكان ، كما ترى لقد أخذنا كل شيء .

- ولتسجيل الملاحظات دفتر ، قلم ؟

- لا تقلق ، أخذناها أيضًا .

وبينما كان آتاكان يريد أن يشكر أصدقاءه ، ضحكت حلية بمكر ، وقالت :

- أخذت أكثر مما يجب عليّ أخذه .

- لم أفهم . . .

وضعت حلية حقيبة ظهرها على الأرض ، وأخرجت منها بوصلة .

سأل آتاكان في فضول :

- هذه تشبه التحف ، على أي حال هل تعمل ؟

- وبشكل مثالي أيضًا .

سأل مرتجان هذه المرة :

- أين وجدت هذه يا حلية ؟

- أخرجتها من صندوق جدتي ، فإنَّ جدَّ جدتي كان جنديًا في تشنكلة ، واستخدم هذه البوصلة في الحرب ، واعتنى بها حتى موته

كعينه ، ثم ائتمنها ابنه الأكبر ، ونبّه باستمرار : « حذار أن تعطوها لمن لا يعرف قيمتها » . وانتقلت من يد إلى يد إلى أن استقرَّت أخيرًا عند جدتي ، حتى نحن لم نكن نعلم بهذا الأمر ، وعندما علمت جدتي أنني سأذهب إلى تشنكلة بدأت بالاستفسار :

ـ ماذا ستفعلين هناك ؟ هل ستتنزهون بلا هدف ؟ هل ستتنزهين وتضحكين فقط بينما الشهداء ينظرون إليكم ؟

ـ ما المناسبة يا جدتي ؟ سوف أذهب للبحث في واجب أستاذ العلوم الاجتماعية .

ـ ما هذا الواجب ؟

ـ ما أدراني يا جدتي ، سوف أبحث عن روح تشنكلة ، الجميع يعرف الأحداث المعروفة ، المهم في هذا أن تحصل على الطرف غير المرئي ، هذا ما قاله الأستاذ .

عندها فتحت جدتي صندوقها الذي كان ينتظر في زاوية من الزوايا لسنوات ، وأخرجت منه هذه البوصلة ، مدتها إليَّ بيديها المرتعشتين . ثم قصّت عليّ قصة جدها الأكبر ، تأثرت كثيرًا ، وبحسب انحنائها إلى أذني وإخبارها لي كَأنها تفشي سرًا يبدو كما قالت أن استخدامها في المكان الصحيح والوقت الصحيح مفيدٌ جدًا ، وأخبرتني بأني سوف أستفيد منها .

قال مرتجان بحماسة :

ـ يبدو أن هذه الرحلة ستكون مثيرة .

و أضاف آتاكان :

ـ أوافقك الرأي ، من الأفضل أن نتحرك بسرعة .

* * *

تبدأ الرحلة...

أخذ الطلاب أماكنهم في الحافلة ، وفيها موجّهان : أستاذ العلوم الاجتماعية السيّد برام ، وأستاذ اللغة التركية السيّد فاتح . تم التحقّق لآخر مرّة ، وانطلقت الحافلة عند السّاعة ٦,٠٠ ستكون الرحلة فوق تكيرداغ وسيُمرُّ من غاليبول نحو الساعة العاشرة صباحًا إذا لم يحدث شيء طارئ .

ومثلما يكون الجو عادةً في أي حافلة رحلة ، هنا أيضًا كان الجو كذلك ؛ الناعسون ، والضاحكون ، والمازحون ، والمستمعون للأغاني ، والمنهمكون بهواتفهم ، كلهم كانوا في مكان واحد . تجوّل السيد فاتح بين الطلاب مع عرضه الجميل من مكبر صوت الحافلة ، وهناك من غنى ، ومن حكى نكتة ، ومن سأل سؤالاً .

ثم طلب الطلاب من السيد فاتح أن يقرأ شعرًا ، ليس هناك من لا يعرف هوايته الشعرية .

أضاف السيد فاتح على جملته : « هل أرد لكم طلبًا » قائلاً : أقرأ لكم شعر عشق .

علت أصواتهم قائلين : « اووووو » .

وساد في الحافلة صمت عميق .

بدأ السيد فاتح قراءة شعره :

طيور الجنة

هكذا يكتب على جباههم

الوطن يطلب النجدة ، القلب ينزف

الأغنام الجديدة بشعرها المحنى

ركضت إلى محشر تشنكلة ،

ركض الأطفال المغنون في الجنة !

وقبل أن تخرج لحاهم ،

من غير قول أفٍ ، وباجتهاد ، ودون كلل ،

ومن دون التلفت إلى الوراء ولو مرة واحدة ،

ركضوا إلى محشر تشنكلة ،

ركض الأطفال المغنون في الجنة !

كانوا أقصر من البندقية ،

لكن قلوبهم بكبر الجبل ،

وأرواحهم العذبة كانت حملاً ،

ركضوا إلى محشر تشنكلة ،

ركض الأطفال المغنون في الجنة !

وحده يكفي جيشًا كاملاً ،

جدير بجعل البحر مقبرة للأعداء ،

الذهاب إلى ديار بلا رجعة ،

ركضوا إلى محشر تشنكلة ،

ركض الأطفال المغنون في الجنة !

كانوا زهور النصر المجيد ،

كانوا لسان التاريخ المتحدث ،

حذار أن تظنوا أنهم كانوا أمواتًا !

الأطفال في محشر تشنكلة

تجاوزوا حدود الشجعان ،

ركضوا لنجدة زهرة الوطن ،

ركض الأطفال المغنون في الجنة !

صفق الطلابُ للسيد فاتح ، ولم يستطيعوا ألا يسألوا :

ـ أستاذي أما كنتم ستقرؤون شعرًا للعشقِ ؟

ـ أحبائي هل يوجد أجمل من هذا العشق ، عشق الوطن فوق كل عشق .

ـ هو كذلك . . .

ـ وفوق هذا نحن ذاهبون إلى تشنكلة ، قرأت هذا الشعر ليكون مناسبًا لروح الرحلة .

ـ نعم . . ولكن . . .

ـ أعدكم ، سأقرأ عليكم من شعر العشق الذي تريدون في العودة ، الآن سيكون من الجَيِّدِ أن ننام قليلاً ، ينتظرنا يوم مُتْعِب .

استلقت المقاعد إلى الوراء ، وأُغلقت العيون ، وساد الصمت وعمَّ النوم .

* * *

غاليبولي

« قف أيها المسافر ! دست على هذه التربة من دون علم ، إنه مكان عصر كامل .

انحن واستمع ، كومة الصمت هذه ، هي مكان دقات قلب وطن » .

نجم الدين هلال أوكان

دخلت الحافلة غاليبولي في نحو الساعة العاشرة صباحًا ، هنا قافلة اشتملت على عنصر إخباري لإعلام الطلاب بالمعلومات طول الرحلة ، كان الجو باردًا جدًا ، وبعد أن تناولت القافلة فطورًا أدفأ الطلاب ، أخذوا أماكنهم في الحافلة ، وقبل الانطلاق أعطى الموجّه بعض المعلومات القصيرة عن هذا المكان :

« لقد عيش في هذه الأماكن في حرب تشنكلة عام ١٩١٥ ، عاشت هذه الأرض في حضن آلاف الشهداء ، من المفيد أن تتذكروا هذا ليس فقط في هذا المكان وحسب بل في كل الأماكن التي سوف تزورونها طوال الرحلة ، وإذا كنّا نستطيع الآن أن نتنزه بكل راحة

وهدوء هنا فهذا يعني أننا مدينون للمحمدين الشهداء أو المنتصرين في حرب تشنكلة ، وإذا أردنا أن نجعلهم ممتنين فعلينا السعي وراء اصطياد روح الحرب » .

لفتت جملة « علينا السعي وراء اصطياد روح الحرب » نظر المشاغبين ، نظر الثلاثة إلى بعضهم في آن واحد ، لم يتحمل مرتجان ، وسأل الموجّه قائلاً :

ـ كيف تُصطاد روح الحرب ؟

لم ينتظر الموجّه سؤالاً كهذا ، فكر قليلاً ثم قال :

ـ سألت سؤالاً جميلاً جدًا أيها الفتى ، تُصطاد روح الحرب مع فهم هدفها .

ـ أعرف عن هدفها القليل . .

ـ ويوجد أيضًا ؛ أن تشعر بما عاشه المحمد في الحرب ، ويجب أن تضع نفسك مكانهم .

تدخل آتاكان قائلاً :

ـ يجب علينا دخول حياتهم الحسّية على الأغلب .

قال الموجّه :

ـ أحسنت يا فتى ، لقد أصبتَ ، هل أخبركم بشيء ؟ أنتم فعليًا

بدأتم باصطياد روح الحرب ، وأبارك لكم هذا ، وبالطبع أساتذتكم أيضًا .

قال السيد برام وهو في مكانه :

ـ أيها الموجّه ، هؤلاء أبطالٌ في نظرنا .

وضحك المشاغبون ، وبينما هم يتبادلون أطراف الحديث كانت الحافلة قد تحركت .

قابلهم في كيليتباهير لوحة خلفها منظر تلالٍ رائعة ، في اللوحة كان هناك محمد يقف وكأنه يتحدى العالم بسلاحه الذي في يده ، وبجانبه مباشرةً سطران من الشعر :

« قف أيها المسافر ! دست على هذه التربة من دون علم ، إنه مكان عصر كامل » .

قال الموجّه للطلاب الذين وقفوا يشاهدون هذه اللوحة مذهولين :

ـ كما ترون ، هذه اللوحة تعبر عنِ روح تشنكلة تعبيرًا رائعًا .

سأل السيد فاتح الطلابَ بعد أن طلب الإذن من الموجّه :

ـ لمن هذان السطران المأخوذان من شعر « قف أيها المسافر » ؟

تقدم طالبٌ وقال :

ـ لكم يا أستاذي ؟

ـ لا ، ليس لي .

كانت أجهزة الهواتف النقالة التي ترتبط بالشابكة تستخدم في تركيا بكثرة في عام ٢٠١٣ ، وكان أغلب الطلاب في هذه الرحلة يملكون واحدًا ، ولكنّ حلية كانت أسرعهم ، فقد أخرجت هاتفها وبحثت « قف أيها المسافر » بالشابكة ، وبسرعة أعطت الإجابة : الشعر لنجم الدين خليل أونان .

شكرَ السيد فاتح حلية .

بدأ الموجّه بإعطاء المعلومات عن قلعة كيليتباهير التي تقع قُبالتهم :

« كيليتباهير ، تعني « قفل البحر » ، وهذا المكان أصبح فعليًا قفلاً لتشنكلة وللبحر أيضًا ، أسس هذه القلعة السلطان فاتح ، وبهذه الطريقة تصدى السلطان فاتح للهجمات القادمة عن طريق البحر إلى الإمبراطورية العثمانية » .

كانت القافلة في منطقة الشهداء عند رمز النصر ، هنا ذكرى شهداء تشنكلة ، وذكرى العساكر الجرحى ، وذكرى مصطفى كمال في تشنكلة ، هذه الذكريات الثلاث بعضها يكمل بعضًا ، وتعتبر أهم ذكرى لتشنكلة .

كان آتاكان ومرتجان وحلية يستمعون إلى الموجّه من جهة ، ويتفحصون الذكرى من جهة أخرى .

هنا يرقد المخلصون من جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية جنباً إلى جنب .

بدأت حلية تشاهد ما حولها ، كان كل شيء يبدو حيًا ! كانت تقف مقابل غموض خليج مورتو ، وسد البحر ، وخليج أرتغول .

كانت حلية في حاجةٍ لتتفحص تلك الأماكن عن كثب ، ثم قالت :

ـ هذه الأماكن جميلة جدًا ، ولكن علينا أن نرى المواقع التي جرت فيها الحرب .

قال مرتجان :

ـ حتى إن علينا أن نشعر كما لو كنّا نحارب مع المقاتلين كتفًا بكتف .

أكملت حلية بحماسة أكبر :

ـ وأنا عليَّ أن أحمل لكم المياه ؛ وأن أضمّد لكم جراحكم في المشفى المتنقّل . . .

ناصر آتاكان لأصدقاءه قائلاً :

ـ أعتقد أنّنا بدأنا نصطاد روح الحرب .

تعمّق المشاغبون في جوّ المعركة كثيرًا لدرجة أنهم لم ينتبهوا لوصولهم إلى خليج أرتغول .

كانت كرة ضخمة تقف قبالتهم ، وأنصتوا لكلام الموجّه وهو يقول :

ـ وضعت هذه القنبلة منذ القدم من قبل السلطان عبد الحميد الثاني ، لأن السلطان عبد الحميد كان يعلم أن حربًا كهذه ستُقام في يوم من الأيام ، وخطط أن لهذه القنبلة سيكون لها أعمال مهمة جدًا عندما يقع الهجوم من أربع أذرع من القوى العظمى في العالم . ليست هذه القنبلة فحسب ، بل كان هناك قنابل أخرى وضعها السلطان عبد الحميد الثاني في مواقع الحرب . كان قد وضعها في أماكنَ حاسمة لا مفر للعدو منها ، وبالتالي أدّت هذه القنابل دورًا مهمًا في النصر .

كان المشاغبون يجولون حول القنبلة ، يصوّرون بفضول أحيانًا ، ويلتقطون بعض الصور لهم أحيانًا أخرى ، وكانوا يفتحون أجهزة الصوت عندما يتكلم الموجّه ، لكي يسجلوا كلّ ما يشرح . وبينما كانت القافلة تشاهد ما حولها بعيونٍ فضولية ، أسرع المشاغبون لدخول القنبلة من فوهتها الكبيرة ، وجلس الثُلاثيّ في

الفوهة تاركينَ أرجلهم خارجًا ، كان يغمرهم شعور لا يوصف ، وضع مرتجان نفسه مكان قنبلة من رخام ، وعندما صرخ « غووم » قلّده أصدقاؤه أيضًا ، التقطت حلية البوصلة ، ثم قالت :

ـ دعوني أجربها مرة أخرى إذا أردتم . ونظر أصدقاؤها إليها في عجب ، وهي تحرك البوصلة بيدها من جهة إلى جهة ، كان لابد أن تكون النقطة المُشارُ إليها هي مكان وُجودِهم ، وعلى الأغلبِ واحد من الأسهم كان يشير إلى الشمال ، ولكن ما هذه الأضواء التي تنير وتنطفئ ؟ وهل هذا الضوء كان سابقًا أم أنه ظهر للتو ؟

وبعد قليل بدأت البوصلة بإخراج صوت « بيب ، بيب » ، وازداد فضول المشاغبين كثيرًا ، ما الذي يحدث ؟ على الأغلب البوصلة تعطي إشارة ، وسمعوا من ورائهم مباشرةً صوتًا مشابهًا لصوت البوصلة ، وعندما عادوا إلى الوراء وجدوا في سقف الفوهة نقطة ضوء تنير وتنطفىء ، ومن مكان انبعاث الضوء سمعوا صوتًا مشابهًا لصوت تنبيه البوصلة ، واقتربوا من الفوهة التي يخرج منها الضوء عندما وضعوا أيدهم وركبهم على الأرض ، ورأى المشاغبون أن الضوء الذي يخرج من الفوهة ينير وينطفىء في آن واحدٍ مع ضوء البوصلة بحيرة ، وأيضًا الضوء المبعث من الفوهة يشير إلى رمزٍ كُتبَ باللغة العربية كما هو بالبوصلة تمامًا ، ونظروا إلى الرمز بدقة محاولين فهمه .

ولأن آتاكان كان يعرف قراءة القرآن ويميز حروف اللغة العربية ، صرخ :

ـ الله أكبر !

وفي نفس اللحظة التي صرخ فيها اختفى آتاكان ، تفاجأ مرتجان وحلية ولم يعرفوا ما عليهم فعله ، صديقهم اختفى ، وكأنَّ الأرض انشقت وبلعته ، وأفاق مرتجان ، قال وهو يفتح عيونه الخضراء :

ـ ماذا حدث لآتاكان ؟

ـ يا إلهي ، لقد اختفى !

ـ اختفى فعلاً !

ـ كيف حدث هذا ؟

ـ لا أدري .

قالت حلية وقد بدأت تستوعب ما حدث :

ـ ماذا كانت آخر كلمة قالها آتاكان ؟

وقال الاثنان في آن واحد : ـ لن نترك صديقنا وحيدًا

وعدّوا إلى الثلاثة ، ثم قالوا « الله أكبر ! » وفي اللحظة نفسها وجدوا أنفسهم في فراغ .

بدأت مغامرة المشاغبين .

رحلة العودة بالزمن

« الجباه النّظيفة المضروبة ، تستلقي وتنام ، من أجل هلال ، يا رب ، كم من شمس تغيب !

أيّها العساكر المرمون على تربة الوطن لأجل الوطن ! لو نزل أجدادنا لتقبيل جباهكم الطاهرة لاستحققتم ذلك » .

محمد عاكف آرصوي

وجد المشاغبون أنفسهم في نفق زمني ، وسرعتهم تتخطّى سرعة الضّوء ، ومع بداية الرّحلة وجدوا أنفسهم في بياض لا نهاية له ، كانت تحيط بهم كل تدرجات اللّون الأبيض من كل جانب .

وكأنّهم يمشون في بحر النور .

وكانت موجات الضوء التي تلفّهم من الجهات الأربع تشتدّ مع تقدمهم ، كانت دقّات قلبهم تزداد ، لكن أحدًا منهم لم يبدُ عليه علامات الخوف ، ولكنهم كانوا في حماسة لا توصف ، لم يكونوا على علمٍ كم استغرق الطريق من الزمن ، ربّما كان بضع ثوان أو بضع

دقائق ، ونظرًا إلى تباطؤ حركة البوصلة كانت الرحلة على وشك الانتهاء ، أخيرًا انقطع صوت الإشارة نهائيًا ، وأحست حلية ومرتجان بفراغٍ داخلهما ، وكأنّ قوّة عظيمة غير مرئية أحاطت بهم وأنزلتهم ، وعندما فتحوا أعينهم وجدوا آتاكان هنا ، كان يتلفت حوله متفاجئًا ، وفرح الأصدقاء الثلاثة لأنهم تقابلوا سليمين ، كانوا يحاولون فهم ما جرى .

كانوا قد دخلوا إلى كرة ، وقادتهم الإشارة التي خرجت من البوصلة إلى إشارةٍ في الفوهة ، ثم قابلهم رمز ، وعندما قال المشاغبون الله أكبر ، وجدوا أنفسهم هنا .

هل يا ترى إن قالوا الكلمة نفسها مرة أخرى سيعودون إلى مكانهم القديم ؟ لا يمكن تجاهل فكرة مرتجان هذه ، لم يعلموا في أي مكان أو أي زمان كانوا ، من يدري أيُّ مصائب تنتظرهم ، وقرروا وصرخ الثلاثيُّ في آنٍ واحد :

ـ الله أكبر !

ظلّ المشاغبون في أماكنهم .

حاولوا أن يعتادوا على حالة العجز التي كانوا فيها .

* * *

تهليلات النصر

بدأ المشاغبون بسماع مجموعةٍ من الأصوات دون أن يستوعبوا ما حدث بعد ، كان صدى الأصوات المنبعثة في السّماء تشبه تهليلات النّصر ، وعندما استمعوا جيّدًا بدؤوا يفهمون ما يُقال ، نعم ، نعم كان المشاغبون يفهمون ما يُقال رغم كونه كلامًا ليس باللّغة التركية ، هذا يعني أنهم لن يواجهوا مشكلة اللّغة في رحلة الزمن هذه ، واتّجهوا مرّة أخرى صوبَ الأصوات :

ـ مقابل غاليبولو كان في داخل البحر غوّاصة تندفع إلى سطح الماء ، وإذ لُوّحَ براية الإنكليزِ ثلاثَ مراتٍ قامت الثكنات العسكرية بتزيت أرضياتها ، وأخذِ نفسٍ عند بولاير .

ـ عشت سيدي !

ومن هذا النقاشِ ، يمكننا معرفة أن هذا السّيد هو وزير الإنكليز في الحرب .

وسُمع صوتٌ آخر :

ـ أقول بصفتي قائد أسطول البحر المتوسط وبحر باندنيز ،

سنكون في إستنبول بعد أسبوعين إن كان الطقس مناسبًا .

ـ فلتحيَ يا قائدي !

كان المشاغبون لا يزالون في حيرتهم ، كانت تدخل إلى آذانهم الآراء التي أتت من مختلف أنحاء العالم عن حرب تشنكلة التي لم تبدأ بعد ، كان مسؤولٌ في مجلة « أوقات الأحد الإنكليزية » يقول : لن يبقى أثر من الدولة التركية في أوروبا عند أول دخول سفينة للإنجليز من المضيق .

وأبدى شاعرٌ إنجليزيٌ (روبرت بروك) فرحه بقوله : هذا شيء جميلٌ لا يكادُ يُصدق ، لم أكن أتخيل أبدًا أن ثروتنا ستسعدنا إلى هذا الحد ، ذاهبون ، ستهدم قلعة غالاتا بقنابلنا ، سننهب فسيفساء ، وسجاد آيا صوفيا ، أومن أني سأشهدُ على إغلاق عهدٍ كاملٍ .

كانت أصوات الأقلية في إستنبول معروفة أكثر للمشاغبين ، كانوا متأكدين أنَّ إستنبول ستتغير ملكيتها ، كانت أصواتُ المحتفلين من اليونان والإنكليز قد زيَّنوا بيوتهم بالأعلام باكرًا ، وأصواتهم تصدح في السماء .

كان المشاغبون يعلمون استنادًا إلى معلوماتهم في التاريخ أن هذه التهليلات ستتحولُ لأصوات نحيب بعد وقت قصير ، ولهذا

اكتفوا بالتبسم ، ومن جهة أخرى كانوا لا يصدقون سماعهم لهذه الأصوات ، بالنسبة لهم كان هذا مدهشًا ، وكما يبدو سيتابعون عيش مثل هذه المواقف بعد أن تبدأ الحرب أيضًا .

* * *

هل تَمَّتْ التجهيزات ؟

وصوت آخر جعل الأصدقاء يتفاجؤون :

ـ هل تمت التجهيزات كاملة ؟

ـ تمت قائدي !

كانوا على قمة تلٍ ، كان الصوت قادمًا من سفن الإنكليز فوق البحر .

وبعد قليل بدأت أصواتٌ أخرى بالقدوم :

ـ هل تمت التجهيزات كاملة ؟

ـ تمت قائدي !

كانت هذا الأصوات قادمة من سفن الفرنسيين .

تتداخلت أصوات الإنكليز مع أصوات الفرنسيين :

ـ إنَّ الاستيلاء على تشنكلة أمرٌ هيّنٌ علينا .

ـ سوف نُري الحلّاقين الأتراك يومهم !

ـ تشنكلة أولاً ، وإستنبول ثانياً !

ـ من يمكنه الوقوف أمام هذه القنابل !

كان المشاغبون قد علموا في أيّ زمان ومكان هم ، كانت هواتفهم تُظهر أنهم في تاريخ ١٩ تشرين الثاني ١٩١٤ ، ومكان تواجدهم يَقرُبُ حصن أرتغول كثيرًا ، وبعد أن مشوا بضع خطواتٍ وجدوا أنفسهم في وسط الحصنِ ، لم يتفاجؤوا حتى من سرعتهم التي كانت تتحدى قوة الجاذبية ، وعَجبوا من تحرك العساكر وكأنهم لا يرونهم ، تسللوا من جانبهم ، في الحقيقة لا أحد يراهم فعلاً ، وصرخوا باضطراب :

سيبدأ إطلاق القنابل من قِبَل الإنكليز والفرنسيين .

ولم يسمعهم أحد مجددًا .

كل واحدٍ في الحصن مشغولٌ بعمله ، سَحَبَ مرتجان عسكريًا من ذراعه وقال :

أقول لك أنت ، سيبدأ إطلاق القنابل بعد قليل !

لم يحدث للعسكريِّ شيء ، وفهموا عند ذلك أن رؤية العسكريّ لهم أو حتى سماعهم أمرٌ مستحيل ، لأنهم أصبحوا غير مرئيين .

* * *

في وسط المعركة

« الموت في تنزيل السموات ، يموت الميت في انفجار

إنه شكل مدهش : يدافع البشري المنقذ... رأس ، عين ، جسم ، فخذ ، ذراع ، ذقن ، إصبع ، يد ، رجل ، ويفرغ على الظهور ، تنهل على الوديان » .

محمد عاكف أرصوي .

وكان المشاغبون يفرحون كونهم أصبحوا غير مرئيين من جهة ، ويحزنون من جهةٍ أخرى ، وسيكون من الجيد أن يسمعهم العساكر لإخبارهم ، ولكن هذا ليس ممكنًا ، ومن جهة أخرى كانوا يفرحون لأنهم ليسوا في خطر ، كل ما عليهم فعله هو متابعة أحداث الحرب ، كانوا سيتعلمون درسًا من كل لحظة ، وتفحصوا كاميراتهم وهواتفهم المحمولة ودفتر ملاحظاتهم ، سيكونون مراقبين جيدين ، وصعدوا فوق هضبةٍ ، أخفوا أنفسهم وراء صخرة ، وتركوا أنفسهم لتسلسل الأحداث .

في عام ٣ تشرين الأول ١٩١٤ فُجرت أول قنابل مع بزوغ

الفجر ، بدأ الإنكليز بإبادة حصن أرتغول وحصن سد البحر ، ومن جهة أخرى كان الفرنسيون يطلقون القنابل على حصن قلعة كوم وحصن أورهانية .

كان صحيحًا أنهم غير مرئيين ، لكن كيف سيُحمَونَ من الرخام المتطاير من القنابل كالنيران ؟ قطعة من الشظايا كفيلة لتدفنهم في أعماق الزمن ، لكن هذا لم يحدث ، كانت الشظايا تخترق أجسادهم ، ومازالوا يقفون على أقدامهم منتصبين ، تفحصوا أجسامهم ، لم يجدوا أي جرح ولو كان بسيطًا ، عندها فهموا أنهم ليسوا فقط غير مرئيين بل هم أيضًا أناسٌ لا تخترقهم رصاصة !

وكانت الأفكار في عقول المشاغبين تمر بسرعة لا يمكنهم ألا يستغربوها ، يفكر الإنسان بسرعة في العادة أيضًا ، لكنَّ هذه السرعة لم يشهدها العالم بعد ، في الواقع هذا ليس العالم . . . إنه مكان مختلف كلّياً ، هنا كلُّ شيء ممكن .

كانت مشاهد العساكر الممددين على الأرض بعد أول قنابل . . . الدخان المتصاعد من القنابل ، دماء الشهداء . . . طنين الشظايا التي تمر في الهواء ، الأذرع الملتصقة بالشظايا ، الأفخاذ . . . الإنكليز والفرنسيون الذين يتقيؤون موتًا القادمون من بعد آلاف الأميال إلى تشنكلة ؛ العساكر الذين يقاتلون في ساحة الأصدقاء مع الموت حامين وطنهم ، الكواكب الأربعة القادمة من كل جهات إلى

الإمبراطورية . . . الجنود التي تركت أرواحها العذبة لرضى الله . . . كانت مشاهد مرعبة .

وعلاوة على ذلك لم تكن الحرب قد بدأت بعد ، ما المشاهد المرعبة التي كانت ستحدث .

استغرق القصف الأول ١٧ دقيقة ، ٥ ضبّاط و٨٠ عسكريًا لم يبق منهم قطعة تدفن ، ذُهل المشاغبون ، كم أرادوا أن يقدموا شيئًا ، لكن هذا لم يكن ممكنًا ، فتحوا قلوبهم لهم فقط ، وقرؤوا لكل واحدٍ منهم الفاتحة ، وسجّل آتاكان جملةً في دفتره ، « نفوز بالنصر الحقيقي بأرواح الأبطال مجهولي الأسماء » .

وبينما كان آتكان يدون هذه الجملة تجمد الثلاثيُّ بذهول ، لأن آتاكان كان يكتب بحروف عربية من اليمين إلى اليسار لا بالحروف التي يعرفها ، من غير الممكن أن يفعل هذا ؛ لأنه لم يتعلم هذا أبدًا ، وترك الذهول على وجوههم بسمة ، نعم ، كانت هذه الحروف تستخدم في عام ١٩١٤ ! وعلى هذا الأساس صار المشاغبون يتحركون ، وتتابعت الأحداث المدهشة .

كانوا يعتادون رويدًا رويدًا على الزمن القديم ، وبدأت الحرب مجددًا .

ومن المؤكد أن الدولة العثمانية سترد على هذا الهجوم الأول

للعدو ، أفضل شيء متابعة الأمور ، لم يكونوا على علمٍ بالفترة التي سيبقونها في هذا المكان ، ولم يعلموا أيضًا كيف هي طريقة العودة ، كانوا يعلمون فقط أنهم في مأمن الآن ، إذًا هم يستطيعون أن يتفرقوا ، ودخلت هذه الفكرة عقولهم كلهم ، ولكن من أين وإلى أين سيذهب ؟ قال مرتجان :

ـ اتركوا عليّ القوى التي تهجم على تشنكلة .

وقال آتاكان : ـ وأنا أتابع الجنود التي تجعل من تشنكلة مكاناً لا يُخرق وهل تقف حلية ؟ قالت :

ـ وأنا سأتابع قصص الحرب من خلف الواجهة .

وقالوا : تم ، هيا فلنتحرك .

قال آتاكان : لحظة واحدة ، متى نعود ؟

لم يفكروا بهذا الموضوع ، وقرروا أن يتقابلوا عند نفق الزمن ، بعد ٢٤ ساعة ، كانوا يعلمون أنهم سيفعلون الكثير من الأعمال في هذه الأربع والعشرين ساعة ، وتفحصوا ساعاتهم ، سيعودون في ٤ تشرين الثاني ١٩١٤ في هذه الساعة ، ونظروا مرة أخرى إلى المحيط كيلا ينسوا المكان ، تعانق المشاغبون ، وتفرقوا في جهات مختلفة قائلين لبعضهم فليساعدكم الله .

* * *

أحلام تشورتشيل

لم ينس مرتجان أول حدثٍ عاشوه في رحلتهم في الزمن ، لم تكن القنابل التي أطلقت من سفن الإنكليز والفرنسيين على حصن العثمانيين لتذهب من البال ، وزاد نجاح هجومهم الأول من ثقة العدو بنفسه ، كم سيستمر هذا الأمن ؟ هل ستفتح تشنكلة لهم ممرًا ؟

كان مرتجان يعرف القليل عن أجوبة هذه الأسئلة من معلوماته القديمة عن التاريخ ، وكان يرغب في التعرف على ما عاشه الإنكليز عن كثب في هذه الحرب ، ولكن لم يستطع في بادىء الأمر أن يقرر أي حدث سيتابع ، أو من سيتبع ، وكما اعتاد أن يفعل دائمًا وضع رأسه بين يديه وأغمض عينيه لكي يفكر بشكل أفضل ، وعندما فتح عينيه وجد نفسه بجانب رئيس الإنكليز للقوات البحرية تشورتشيل .

وكان الوزير الجبّار في اجتماعٍ مع أصدقائه في المهمة ، وعلى ما يبدو أنهم في حالٍ جيدة ، يحتفلون بنصرهم في ٢ تشرين الثاني ١٩١٤ ، وبدأ تشورتشيل يتكلم بغرور :

ـ ألم أخبركم أن لا قوة تذكر للعثمانين تستطيع منعنا . . .

ـ أنت محق حضرة الوزير ، إن الأتراك متفاجئون بما حدث لهم .

ـ ماذا قالوا : الفوز للمبادر !

وبدأ تشورتشيل بعدِّ أوامره مجددًا :

ـ إذا جئنا بالقوات البحرية الفعلية سوف ندخل تشنكله في أقلّ من أسبوع ، وفي فترة قصيرة أيضًا سوف تكون إستنبول تحت سيطرتنا ، فلتُجهز أعلام الإنكليز واليونان المزينة التي انتظرت مئات السنين أن تُعلّق على شوارع هذه المدينة !

ـ سمعًا وطاعة حضرة الوزير !

ـ ولتطبع النقود الخاصة التي ستُستخدم في إستنبول !

ـ سمعًا وطاعة حضرة الوزير !

ـ فلتتخمر كل مشروبات إستنبول التي سوف ننفقها في احتفالنا بالنصر .

ـ سمعًا وطاعة حضرة الوزير !

ـ فليحدد موعد مع بعض السفراء لمقابلتهم في إسطنبول في المستقبل القريب .

ـ سمعًا وطاعة حضرة الوزير !

كان مرتجان ينظر لحال وزير البحرية ويضحك ، قال في نفسه : « مسكين . . . لو يعلم ماذا سيحل به لما تحدث بهذه الطريقة » .

وتابع مرتجان الأحداث ، وتتابع إطلاق القنابل بأمرِ تشورتشيل من ١٩ تشرين الثاني ١٩١٥ إلى تاريخ ١٣ آذار ١٩١٥ على حصون العثمانيين .

محت سفن فحص الألغام كل الألغام في البحر ، لم يرغبوا في أن يحصل أي حادث في هجومهم الفعلي ، وفكروا في الضربة القاتلة التي سيضربونها أن تكون في تاريخ ١٨ آذار ١٩١٥ ، وكانوا مؤمنين بقدرتهم على تخطي تشنكله والدخول إلى إستنبول أيضًا .

يا ترى ماذا الذي سيحدث ؟ هل سيتمكن العدوّ من تخطي تشنكله ؟ ولم يكن هناك عائق بحسب الظاهر ، وقوات الإنكليز البحرية قوية جدًا ، لذلك يلقب بـ « الأسطول البحري الذي لا يُقهر » ، ونُظف المضيق من القنابل ، كل ما عليهم فعله هو الهجوم والصبر قليلاً ، والباقي كان سهلاً .

* * *

الرّقيب يحيى أزينلي

كانوا مجموعةً من الأبطال والرّقيب يحيى ،
مع الأفواج الثّلاثة ضرب بشجاعة هنا ،
كان من المفترض تقسيم العدو بشكل كبير ،
أرادوا الله ، وفي المساء لَقوه !

نائيل ماميك

اتخذ آتاكان طريق وحدة الرقيب يحيى أزينلي ، كان هناك شيء يشده بقوة إلى هنا ، كان الرقيب يحيى يُعَدُّ عجوزًا قليلاً بالنسبة لبقية الجنود ، شارك بحرب البقان في عام ١٩١٢ ، لم ترهبه الهزائم التي عاشها مطلقًا ، كان يحارب بروحه في حرب تشنكله ، وربما كان يأخذ بثأره من حروب البقان .

كان آتكان يشعر بالفخر من كونه بجانب هذا البطل ، وبكل غبطةٍ بدأ يتعقّب الرقيب يحيى :

بدأت قوات العدو بالدخول إلى غاليبولو من خمس جهاتٍ مختلفة في يوم ٢٥ نيسان ، سيمرون من هناك إلى كيليتباهير ،

وسوف يحتلون منطقة المضيق بعد إسكات الحصون المركزية .

وحاولت سفن العدو أن تغرق حصون العثمانيّين بآلاف الرصاص ، ولم يصلوا إلى هدفهم رغم كل القوات والحيلِ التي أظهرتها تحالفات الإنكليز والهند ، ولم يفتح لهم ممر العساكر الذين ظنوهم لقمة سهلة .

وبينما كانت التصادمات متحدة قال الرقيب يحيى أزينلي مظهرًا سلامه :

قائدي ، أخرجوني إلى مكانٍ أصادم فيه العدو وجهًا لوجه !

وقال القائد : لماذا تريد أن ترمي بنفسك إلى التهلكة ؟

أجاب : لا يزال بداخلي جرحُ هزيمة البقان ، لن يسكن هذا الجرح حتى أقاتل العدو وجهًا لوجه .

بُحث في طلب العسكري البطل على الفور ، وأُرسل الرقيب يحيى إلى حصن أرتغول الذي سيواجه العدو ، يكافح هناك قائدان والرقيب يحيى مع ٦٧ عسكريًا ضد ٣٠٠٠ جندي من العدو ، وفي لحظة تصاعد شدة الحرب عندما مات القائدان تعهد الرقيب يحيى بإدارة المجموعة .

وأُجبِرَ الرقيب يحيى أخيرًا على قتال العدو برفقة العساكر الخمسة الذين بقوا أحياء ، وقال في لحظة من اللحظات :

فلنتراجع إلى هضبة التشي .

ذلك المكان آمن لهم ، علاوة على ذلك فإنهم يستطيعون من هناك أن يكبدوا العدو خسارات أكثر ، وهذا ما حدث فعلاً ، كان العدو يظنهم مجموعة كبيرة ، لم تسكت أسلحة العساكر أبدًا ، وأما عنهم فقد خسروا الكثير .

وأخيرًا سكتت أسلحة العساكر ، وكان العدو يأخذ احتياطاته دائمًا ، وقررت قوى العدو الدخول بعد أن مرَّ وقت طويل على ظهور أي حركة للعساكر ، تبدلت شجاعة العدو القادم بقوارب النجاة إلى الساحل مقابل الكثرة خوفًا ، وهكذا كان الوصول إلى الشاطىء بدون الدوس على جثث أصدقائهم أمرًا مستحيلاً ، وبالنظر إلى الجثث فهمت قوات العدو أن دورهم آت عاجلاً أم آجلاً ، وبكثيرٍ من الصعوبات استطاعوا الصعود إلى الشاطىء ، وعندما وصلوا إلى هضبة التشي وجدوا (٥) جثث عساكر فقط ، كلفوهم العديد من الخسائر ، كان هذا حدثاً عظيمًا لا يصدق ، ولكنهم شهدوا في هذه الحرب حدث جميلاً لا يصدق كهذا ، كان هذا واحدًا منهم .

وكانت الجملة التي كتبها آتاكان لذكرى الرقيب يحيى ازينلي تقول :

« إن الأمة المثابرة على خنق عدوها بيديها لن تُغلب ! » .

* * *

السياسة في العالم

كان مرتجان لديه بعض المعلومات التاريخية عن حروب تشنكله ، كان يعرف مثلاً أن في الأعوام الذين هم فيها توشك الحرب العالمية الأولى على البدء ، ويعلم أن في هذه الحرب ستنقسم دول العالم إلى معسكرين ضخمين .

ومن جهة الدولة العثمانية فإن الأوضاع غير جيدة البتة لا من الداخل ولا من الخارج ، لم يرد الشعب حربًا ، ومع ذلك فإن الدولة كانت تنجرف يومًا بعد يوم إلى منتصف الحرب ، أهم ما في الأمر مع أي طرف ستكون الدولة العثمانية في الحرب .

لم يكن مرتجان يذكر ما الذي حدث قبل أن تبدأ الحرب تمامًا ، وفي تلك اللحظة بدأت الأحداث تمر أمام عينيه ، ويتفاجأ مما يحصل ولكنه أدرك أن هذه الخاصية انضمت إلى الأشياء التي كسبها من السفر عبر الزمن .

آه ، كم كان من الجميل أن يحصل هذا عندما يعود إلى العالم الحقيقي ! يمر كل ما يريد معرفته أمام عينيه ، وترك تفكيره بهذا وأخذ يركز بما يراه الآن :

كان قادة الدولة العثمانية يتناقشون مع أي طرف يجب عليهم الوقوف :

ـ أنا أقول فلنكن مع الإنكليز ؛ وإذا سألتم لماذا فأقول لكم إنهم يملكون القوى العظمى للعالم .

ـ لا أنضم لهذا الرأي ، نعم صحيح أنها دولة تمتلك قوى عظيمة لكنها دولة استعمارية . . . وهي الآن تستعمر العديد من دول العالم ودول المسلمين أيضًا .

ـ ماذا نفعل برأيك ؟

ـ إذا تُرك الأمر لي فأقول أن نتحد مع روسيا .

ـ أيعقل ! إن العثمانيين في حالة حرب مع روسيا منذ مئات السنين . . . كيف سنكون أعوانها في ليلة وضحاها . . .

ـ لِمَ لا ، هذه سياسة . . .

ـ إن من الغباء أن نظن أن روسيا تخلت عن رغبتها بالسيطرة على إستنبول أو الوصول إلى البحور المفتوحة .

ـ أيها الباشوات ، لا إنجلترا ولا روسيا بل أقرب الدول إلينا ألمانيا ، كما أن ألمانيا قوية وتفضلنا على إنجلترا وروسيا .

وطال الحديث .

وإذا نظرنا إلى الواقع فإن الشروط تدفع بالدولة العثمانية لتتعاون مع ألمانيا ، ومن جهة أخرى إن انجلترا وفرنسا وروسيا تحبذ أن تبقى الدولة العثمانية محايدة ، وإذا حدث هذا فسيضمنون أن الدولة ستكتسب السلامة الإقليمية الكاملة ، كان من الواضح أن هذا الضمان ليس إلا كلامًا فارغًا ، ورغم ذلك أعلنت الإمبراطورية حيادها في تاريخ ٢ آب ١٩١٤ ، ولكن بعدها مباشرة بدأت تهيىء نفسها وكأنها ستدخل الحرب ، والنتيجة أنها أعلنت في تاريخ ٣ آب ١٩١٤ « الحشد » .

في هذه الأثناء نجح السلطان محمد رشاد ورجاله بمهمة هامة ؛ تم تأمين حدودنا مع دولة رومانيا وبلغاريا أخيرًا ، لكن ورغم هذا فإن الوضع في الداخل ليس مشجعًا ، كانت البوسنا والهرسك وترابلوس والبلقان خارجة عن اليد ، وكانت إنجلترا مصممة على محوٍ الإمبراطورية العثمانية من التاريخ ، وتطلعات فرنسا وروسيا لا تقل عن إنجلترا أبدًا .

هذه الأحداث التي مرت أمام عيني مرتجان لم تكن مجرد مشاهد بالنسبة له ، لقد تعلم للتو أن الدول تضع مصالحها الخاصة فوق كل شيء ، أما ما يهم مرتجان في الأساس ما سيكون موقف الدولة العثمانية ، وتابع مشاهدته للأحداث .

وُقّع في تاريخ ٢ آب ١٩١٤ في إستنبول بين الدولة العثمانية وألمانيا إتفاقية الصداقة بشكل سري ، وفي اليوم نفسه طرأ أمرٌ مهم في إنجلترا ؛ بينما كانت مراسم رفع العلم على وشك البدء فوق السفينتين الحربيتين التي طلبتهما الدولة العثمانية ودفعت ثمنهما ، سيطر عليهما الإنكليز .

في غضون ذلك دخلت سفن الألمان غولبن وبريلاف من مضيق تشنكله في ١٠ آب ١٩١٤ ، وسُمح في نهاية المفاوضات بدخول السفن عبر ممرّ إسطنبول ، وردًا على فعل الإنجليز قامت الإمبراطورية العثمانية بإعلامهم أنها اشترت هذه السفن ، سُحب العلم التركي وسميت السفن بيافوز وميديللي .

وفي ليلة ٢٩/ ٣٠ أكتوبر ١٩١٤ قامت يافوز وميديللي بالعبور عبر البحر الأسود وتفجير ميناء أودسا وسيفاستوبول ، وبهذا الشكل كانت قد سحبت الدولة العثمانية إلى الحرب فعليًا ، واغتنمت الفرصة إنجلترا وفرنسا وأعلنت الحرب على الإمبراطورية العثمانية في تاريخ (٥) تشرين الثاني ١٩١٤ .

معنى الحرب ، الدم ، مسحوق البارود ، دموع ، ولكنها في نفس الوقت تعني دفاعًا عن الوطن ، الكفاح من أجل الاستقلال ، الشهادة . كل هذا يشير إلى العسكريّ الصبور وفي الوقت ذاته الشجاع والمؤمن .

نعم إنه العسكر التركيّ .

وكما كان متوقع اتخذت الدولة العثمانية مكاناً لنفسها بجانب المانيا ، أصيب مرتجان بدوار الرأس من تتبع سياسة العالم ، أخرج دفتره وسجل بثقة :

« أولئك الذين يوجهون العالم هم الأقوياء والأذكياء » .

* * *

السياسة العثمانية

كان التاريخ بداية أعوام ١٩٠٠ ، كان آتاكان يتجول في رواق القصر العثماني ، ويغمر الجميع اضطراب ، في تلك الأعوام كان حاكم الدولة السلطان عبد الحميد الثاني ، كان السلطان كعادته غارقًا في التفكير ، وكأنه يلعب الشطرنج مع خصمٍ وهمي .

وعجب آتاكان عندما استطاع قراءة أفكار السلطان ، ما أعظم هذه الخاصية ، وفكر ليتها تدوم ، ثم تراجع عن تفكيره هذا ، ربما لم يكن من الممتع قراءة أفكار الناس كما يعتقد البعض . . . قال : على كلٍّ ، وأخذ يقرأ أفكار السلطان :

« الدولة المستعمرة العظمى هي إنجلترا ، وفرنسا تلحقها ، وظهرت المانيا وأتاليا على الساحة ، وهم أيضًا بدؤوا بطلب حصة من الدول المستعمرة الغنية ، وبهذه الحال انقسمت الدول الكبرى إلى قسمين ، وبدأ بينهم منافسة جديّة من سينهي الحرب ! ، ما الذي يقع على عاتقنا في هذه الحالة كعثمانين ؟ ما الذي علينا فعله ؟ » .

ضحك السلطان فجأة وفكر في نفسه : « ما أسهل هذا ، كل ما عليّ فعله هو أن أوقع دول العدو فيما بينها ، وهكذا أتجنب

أذاهم ، وأنا أعرف أنه لا بد في يوم من الأيام أن تتشاجر دول العالم فيما بينها ، جَهَّزتُ كل التجهيزات للخروج من حربهم رابحًا ، قريبًا سيعلمون مدى قوة السلطان العثماني مرة أخرى » .

بدأ آتاكان يشعر بفضول اتجاه ما سيفعله السلطان عبد الحميد الثاني، ولكنّ المَشَاهِد التي ظهرت أمام عيني آتاكان جعلته يتفاجأ بشدة .

اغتنمت القوى الراغبة بالسيطرة على الدولة الفرصة وأنزلت السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش في تاريخ ٢٧ نيسان ١٩٠٩ ، وجعلوا مكانه أخاه السلطان محمد راشد ، وأُرسل عبد الحميد خان في نفس اليوم إلى المستعمرة سيلانيك ، منذ ذلك الحين تنفست القوى المعادية للإمبراطورية العثمانية الصعداء ، لأنهم كانوا يظنون أن طلباتهم التي لم يقبل بها السلطان عبد الحميد سيقبلها السلطان الجديد ورجاله بكل سهولة .

والآن يتابع آتاكان السلطان الجديد :

وجد السلطان محمد راشد نفسه في وسط فوضى عارمة عند استلامه للحكم ، كان يتم تنفيذ العديد من الفعاليات السريّة دون علمٍ منه هو ووزيره الأعظم سعيد حليم باشا ، مثلاً كان أحد وزراء الدولة جميل باشا يتصرف بمفرده ويعمل على أن يتحالف مع الإنكليز ، والإجابة التي استقبلها منهم لم تكن تفاجيء أبدًا :

« لا نريد تدخل الدولة العثمانية في الحرب ، نريد منكم أن تبقوا

محايدين ، إذا لزم الأمر فيمكننا أن نضمن أرضكم كلها »

حتى إن آتاكان فهم المغزى من الرسالة كالتالي :

سوف تنهي إنجلترا على المانيا أولاً ، ثم تضرب ضربتها القاضية على العثمانيين .

بعد إعلان هذا الحديث ، استقال الوزير الأعظم سعيد حليم باشا كونه لم يعلم بكل هذه الأعمال ، ولكنه تخلى عن هذه الفكرة حاليًا بعد أن رجاه السلطان ورجال الدولة المهمين العدول عن الأمر ، قال الوزير الأعظم الذي لم يكن قادرًا على التحكم بالأمور : « لا تتركني على مائدة هؤلاء الذئاب وحيدًا ! » ورغم أنه قال هذا فإنه ترك وظيفته ، وبعد ذلك صار رئيس من القوى الذين أنزلوا السلطان عبد الحميد من عرشه وزيرًا أعظمًا (طلعة باشا) ، لم تعجب آتاكان الحيل السياسية المحيطة بالدولة من الخارج والداخل أبدًا ، ورأى أنه لا يوجد شيء أخر يمكن فعله ، إذن على الدولة أن تكون منتبهة في السياسة كما هي في باقي المواضيع .

ودوّن عن هذا الموضوع أفكاره :

« الماء ينام والعدو لا ينام ؛ وعلى الدولة أن تتحكم بمياهها وعدوها على حد سواء »

* * *

إعلان الجهاد الأكبر

ماذا حدث بعد أن هجم الإنكليز والفرنسيون على الدولة العثمانية ؟ وأيّ طريقٍ اتبعت الدولة العثمانية في هذه الحالة ؟ هل حدث أي ردة فعل من الدول الغربية ؟ كانت كل هذه الأسئلة تنقر رأس آتاكان .

وبينما هو يفكر بها وجد نفسه في قصر العثمانيين :

بينما كان العالم يمشي صوب الحرب خطوة بخطوة فإن الدولة العثمانية كانت تسحب إلى قلب النيران ، الوضع أكثر تشابكًا مما كان يبدو عليه ، كان الأعداء يتحالفون فيما بينهم ، وكان السلطان محمد راشد يسعى كي ينقذ الأمة والدولة ، ومن جهة أخرى لم يبدو العثمانيين قادرين على مواجهتهم وحدهم ، في هذا الوضع ربما كان طلب العون من الدول المسلمة فكرة جيدة ، وفكر السلطان محمد راشد بهذا الشكل ، وبكل الأحوال مع كونه سلطانًا للعثمانيين فهو أيضًا في الوقت نفسه في منصب خليفة المسلمين ، وكان للخلفاء قدرة على فعل نداءٍ كهذا باسم الدين .

بدأ آتاكان يتابع الأحداث من زاويا ما :

قام السلطان محمد راشد بإيصال الموضوع بدون تفكير إلى شيخ الإسلام ، أراد من هناك فتوى للجهاد الأكبر ، أعطى شيخ الإسلام مصطفى خايري أفندي الفتوى بعد البحث في الموضوع في تشرين الثاني ١٩١٤ ، قال في الفتوى باختصار :

« إن دول العدو قامت بالهجوم على دولة إسلامية (الدولة العثمانية) ، إن حياة الخليفة والمسلمين في خطر ، من المحتمل السيطرة على المملكة ، ومن المحتمل أن تمحى كل عناصر الثقافة الإسلامية من على الوجود ، وبهذه الحال فإن على كل مسلمي الأرض تقديم العون للدولة العثمانية بكل أنواعه ، وبهذا الشكل فإن الحرب التي ستقام مناسبة للقواعد الدينية » .

كان يفكر آتاكان أن هذا النداء سيكون ذا فائدة ، لكنه يعلم أن القوة تكمن في أكتاف عساكر الدولة .

أعلن عن النداء الأكبر للجهاد في مراسم كبيرة في إستنبول عام ١٢ تشرين الثاني ١٩١٤ .

نادى الشعب عند سماعه النداء قائلين : « الله أكبر ! » الذين كانوا مجتمعين في ميدان كبير ، كان مأمور يقرأ بصوت عالٍ نداء الخليفة ، وقال باختصار إن الخليفة يحتاج لمساعدة من قبل المسلمين كي يستطيع مواجهة دول العالم في حرب كهذه .

كان آتاكان يشعر بالفضول تجاه أحوال الشعب في الأصل ، ودخل بين الشعب ، وبدأ يسمع ما يتحدث به :

- حرب مجددًا ؟ متى سترتاح وجوه أمة محمد ؟

- جيد ، إن هذه الحرب تقوم كي ترتاح وجوه أمة محمد .

- نادى الخليفة على كل مسلمي الأرض فلنرى كم شخصًا سيأتي .

- ليس عندي أمل

- أنا أيضًا لست متأملاً كثيرًا ، كل همومهم على أنفسهم .

- لا تتحدثوا هكذا سيهب المسلمون إلى المساعدة . . .

- على المسلمين إطاعة نداء الخليفة .

- لا ، لن تستطيع إدخال من لا رغبة له في الحرب !

- إن لم يأتِ أحد فنحن هنا ، إنا هنا فلتكن روحي فداءً لهذا الوطن

- روحي أيضًا . . .

- روحي أيضًا . . .

صاح آتاكان بكل قوته روحي أيضًا ، لكنَّ أحدًا لم يسمعه ولم يره ، قد نسي إنه غير مرئي .

بينما كان المواطنون في إستنبول غير متأكدين من قدوم المسلمين للنداء ، ماذا عنهم كيف سيجيبون النداء ؟

بدأ موقف مسلمي الأرض يتبين أمام عيني آتاكان ، لم تكن المشاهد مريحة كثيرًا مع الأسف ، لم يعطي هذا النداء النتيجة المنتظرة ، نعم ساعدت بعض الدول ، لكن هذه المساعدة كانت قليلة جدًا .

وتحمس آتاكان مجددًا بمشهد جديد ، كان هذا المشهدُ قادمٌ من أستراليا ، هذا يعني أن نداء الخليفة للجهاد الأكبر قد وصل إلى هناك ، شخصين نعم فقط شخصين لبّوا النداء جاؤوا بمقاومة مجيدة .

انقطعت المشاهد فجأة ، حاليًا لا يوجد سوى صوت إشارة ، اتجه صوب الصوت ، لم يدري كم مضى عليه في الطريق لكنه قدم إلى أستراليا ، كان آتاكان بجانب هذين المسلمين الذين لبوا النداء في هذه الديار البعيدة ، وجلس يشاهد ما سيحصل .

* * *

حسن المحنى (١)

أنا يوزغاتلي حسان . . . الطفل الصغير . . .

عند دخولي كلدغة فراشة صغيرة ،

أمي حنت لي ،

صبت على رأسي ماء الشهادة ،

أركبتني على غيمة بيضاء ،

أنزلتني لأجل تشنكله ،

تركت خلفي قلبًا بمئة قطعة ،

علَّقتُ كلام أمي على صدري :

« أيها البُنيّ لا نموت دون إنقاذ الوطن ، وإن مت فلن ينقسم الوطن بني ! » .

يوسف دورسن

سمعت حلية أيضًا بنداء الملك للجهاد الأكبر ، كانت تريد أن ترى حروق النداء في الأناضول ، من هذه الجهة كانت قد اختارت القصة الحزينة للمحنى الأزغاتلي .

عام ١٩١٥ ، المكان أوزغات مدينة ساركيا قرية يعقوب الأسود. . . هذا المكان ، كان قرية عادية كما هي كل قرى الأناضول ، طرق ترابية ، البيوت ذات الطابق الواحد المصنوعة من طوب اللبن ، وعند نهاية البيوت يوجد إصطبل كوم من القش. . . الموسم شتاء. . . بردٌ جاف يحرق القرية ويشويها. . . لم تكن القرية فقط من تحترق وتنشوي ، بل والقروي أيضًا ، من صميم قلبه. . . كيف لا يحترق ؟ لقد أعلن السلطان عن حركة الحشد ، وفوق هذا نادى كل مسلمي العالم للمساعدة ، هذا يعني أن الوضع جديّ ، لذلك يجب أن تُفعل بعض الأمور. . . هل تقف الأمة متفرجةً والإمبراطورية الضخمة تطلب المساعدة ؟ لا تقف أبدًا ، كل ما لدينا يقدم أمام الدولة العليّة ، والوضع في قرية يعقوب الأسود لم يكن مختفيًا كثيرًا ، كان عجائز القرية يتكلمون عند جدران الجوامع القديمة المهترئة ، من الواضح أنهم كانوا يتكلمون كيف بإمكانهم مساعدة الدولة :

ـ أنت تكلم أيها الرقيب حسن ، ألن يضحك وجه هذه الدولة يومًا ؟

ـ كيف عساها تضحك يا رضى ، ألا ترى الدول الأربع أيديها الكافرة مجتمعة تحيط بنا من كل حدب وصوب .

ـ ألم تر كيف صاح المأمور في ذلك اليوم . . .

ـ إيه ، جاء المأمور وأعلن في القرية عن الحشد وهو يقرع الطبول .

ـ سنقدم كل ما نملك .

ـ تقول الحق لكن ما الذي تبقى لدينا . . .

ـ إذا ستعطي روحك ، روحك !

ـ روحي فدى هذا الوطن ، لكن روحي بعمر الـ٨٠ هل ستفيد شيئا ؟

ـ تفيد ، تفيد ؛ إن روحك هذه لديها ما يكفي من الخبرة . . .

بدأ العجائز بالضحك حتى في مثل هذا الوضع ، حسنًا ذكور قرية يعقوب الأسود هكذا فماذا عن نسائهم ؟ كانت حلية تشعر بالفضول تجاه هذا ، كان بيتًا نظيفًا بشكل لا يقارن بالخراب الذي في الخارج ، كان مساء . . . وكان الضوء الخافت المعلق يحاول إضاءة الغرفة ، وبكل فضول أخذت تتابع حلية الأحداث الجارية في المنزل :

كانت الأم هتشة تحادث ابنها حسن ، إذا نظرت إليهم تظنهم على وشك إنقاذ المملكة . . .

ـ حمَلي الصغير ، هل سمعت بالأحداث ؟

ـ ما الذي سمعت به أمي ؟

ـ من فترة عندما نادى المأمور على نداء الحشد .

ـ تعنين ذلك ؛ نعم كم كانت ضرباته للطبل قوية ظننت لأول وهلة أن الطبل سينفجر .

ـ وإذا انفجر الطبل ، إن المملكة تنهار يا بني تنهار . . .

ـ لماذا ألا يوجد مالك لهذه المملكة ؟

ـ يا صغيري إن مالكها هو نحن ، نحن أصحاب هذه المملكة وهذه الدولة وأصحاب الإسلام أيضًا . . .

ـ كان حسن يضحك سرًا ، ويتابع إغضاب أمه :

ـ يا إلهي ، هذا يعني أننا مسؤولين عن كل هذا . . .

ـ ماذا ظننت ! نحن المسؤولون بالطبع !

وتكلم حسن بجدية :

ـ ما الذي قصدتِهِ بقولك : نحن يا أمي ؟ لا أعني العامة أعني من قصدي مَنْ في هذا البيت ؟

أخذت الأم هتشة وجه ابنها بين كفيها وقالت :

ـ أنت قصدتك أنت يا حملي الصغير .

ـ من الآن فصاعدًا أرجوكِ لا تخاطبيني بالحمل الصغير يا أمي !

ـ لن أخاطبك هكذا مرة أخرى يا بنيّ ، يا صغيري ، على كلٍّ أصبحت شابًا ضخمًا ، لا تهتم لكلامي ، أنت في نظري صغيرٌ جدًا ، أنا أقولها ضمن الحديث . .

ـ لم يبقى لهذا الحديث مكان يا أمي ، كان في الأمس عربة حصان ذاهبة إلى المدينة ، وقد ذهبت أنا أيضًا . . .

ـ ماذا بعد ؟

ـ لا يوجد شيء ، قمت بتسجيل نفسي في الشعبة العسكرية !

ترنحت الأم للحظة ، صرخت بصوتها الخارج من أعماق صدرها قائلة :

يا حملي المحنى ! وأخذت ابنها بين ذراعيها .

تأثرت حلية لدرجة أنها اجهشت بالبكاء بعد أن شهدت ما حدث ، حتى أنها ارتابت أن يُسمع صوتها ، من الجيد أنها لا ترى وسماع صوتها كان مستحيلاً .

قالت الأم هتشة :

لدينا عمل في الصباح الباكر حسني ، هيا بنا إلى النوم . . .

لم يكن لحسن أب ، كانوا أربعة إخوة صبيان وأختان . . . كانوا يتعايشون مع الفقر والقلّة . . . والآن صاحب البيت الذي بدأت شواربه تعرق سيغادر المنزل ، وليس لهذا الذهاب عودة ، أما عن

اللقاء ، سيبقى على الأغلب ليوم المحشر !

استصعبت الصبح حلية كبقية أفراد البيت ، استيقظوا على صوت الديك المنمش ، لا يمكن أن يلقب هذا بالاستيقاظ ، لم يكونوا قد ناموا ليستيقظوا ، أذنّ إمام القرية المخضرم أذان الصبح ، توضأ من في البيت وصلوا ، ذهب حسن إلى الجامع ، ذهب كرجل وكبطل ، وعندما عاد كانت أمه قد جهزت المائدة ، اليوم نصيبهم حساء البرغل ، سموا بالله وغمسوا الملعقة الخشبية بالحساء وشربوه ، قالوا الحمد لله وقاموا من السفرة .

وبدا حسن وكأنه يريد أن يذهب .

قالت الأم :

اجلس يا بطلي . وذهبت إلى الغرفة ، وعندا عادت كان في يدها صينية نحاسية ، وفي داخلها حنة . . . وحنّت لابنها الحبيب ، كان حسن صامتًا ، ولم يسأل أمه عن شيء ، وفكر فقط بأن لابد أنها تعلم شيئًا لذلك هي تفعل ما تفعل .

لم تستطع حلية أن تنظر أكثر إلى ذلك المشهد ، لو نظرت لرأت كيف كان يحتضن والدته ، وكيف يعانق أخوة حسن أرجله . لو نظرت لرأت قلب الأم هليتشة وماذا يشعر في وجهها ، لو نظرت لرأت كم كان حسن بريئًا وهو يقبل يدي أمه ، لو نظرت لرأت كيف

كان حسن يبتعد وعلى كتفه الصغيرة يحمل بندقية ، وفي يده علب الطعام ، لو نظرت لرأت كيف كان حسن كل ما ابتعد كبُر بدل أن يصغر .

لم ترى حلية أيًا من هذه الأشياء ، فكرت بأكثر مما جرى فقط ، وعندما كانت تكتب جملتها أخذت تجفف دموعها :

« إن النصر يفاز به ببطولة العساكر ، بقدر عظمة الأمهات أيضًا »

* * *

حسن المحنّى (٢)

تركت حلية الام هتشة وأطفالها لقدرهم وتتبعت حسن المحنى ، لم يكن من الصعب عليها أن تمشي من قرية يعقوب الأسود حتى تشنكلة ، لكن كيف كان لحسن المحنى أن يحتمل هذا ؟ ولم يمر كثير من الوقت حتى فهمت أن شاب هذه القرية الداكنة يحتمل كل الصعوبات ، أما المشي فكان كلعب الأطفال بالنسبة إليه .

كانت حلية تتبع حسن المحنى كغيمة ، وعلى الطريق انضم للشباب الذين خرجوا بحب الوطن مثله ، وسلكوا طريقهم كأنهم ذاهبون لدعوة عرسٍ ، كان الطريق طويلاً ؛ وانتهى طعامهم ، لم يكن همًا ؛ لأن كل القرى التي مروا فيها قد ساعدوهم ، شبعت بطونهم ، وغُسِل غسيلهم ، ودُعي لهم بالخير من كل القرى . . . لم يكن معروفًا كم من الأسابيع سيقضونها في الطريق ، لكن فليكن طويلاً ، قد عزموا السفر على كل الأحوال ، سوف يصلون إلى تشنكلة وسوف يجعلون من تربة الوطن المقدسة مقبرة للعدو ، ماذا سيدفعون مقابل هذا ؟ هل يسأل شيء كهذا ؟ ماذا تفيد الروح إذا لم تقع في تربة الوطن لأجل الوطن !

وصل أخيرًا حسن المحنى وأصدقائه إلى تشنكلة ، واستقبلوا كأنهم وصلوا إلى عرس ، كان الموجودون هناك كأنهم يعرفون بعضهم من أزل الآزلين ، وتحاضنوا كأنهم أقرباء جاؤوا من زوايا المملكة الأربع ، كان الوقت قليلاً ، قسم المودة مضى سريعًا ، إنهم الآن عساكر مأمورين في قسم « ٦٤ فوج المشاة ، الطابور الأول ، القسم الثاني » . لم يكن شيء يشغل بالهم لا الملابس الممزقة التي على ظهورهم ولا الأحذية التي لاتناسب أرجلهم تمامًا . . . كل همهم إنقاذ الوطن .

كانت حلية تتحمس من هذه المشاهد وتتلهف لتكون مكانهم .

وفي يوم من الأيام شهدت حادثًا :

بدأ القائد سيد سرٍّ بالتعرف على الجنود ومحادثتهم في الوقت المتبقي من زمن التعليمات لتجهيزات الحرب ، وفي ذلك الوقت تعرف على حسن اليوزكاتلي أيضًا ، ولفتت الحنّة الموجودة على شعره نظر الضابط ، وتفاجأ القائد سيد سرٍّ بوجود الحنّة على رأس العسكريّ ، وقد أَلِفَ أن يرى العساكر يحنون أكفَّهم أو ثلاثًا من أصابع أيديهم اليمنى أو أصابع أرجلهم ، وسأل حسنًا ما الذي تعنيه الحنّة ؟ وقال حسن خجلاً :

ـ قائدي ، أمي من حنت لي عندما أردت المجيء إلى هنا ، ولم أسألها لماذا .

قال السيد سرٌّ :

ـ إذا فلترسل لها برسالة واسألها ، لنعرف نحن أيضًا .

ـ لكني لا أعرف الكتابة يا قائدي .

ـ قل لقسم الكتابة أن يكتبوا لك ، لنرى ما هو الجواب ؟

ـ على العين والرأس قائدي .

أتى حسن إلى قسم الكتابة في وقت استراحة من الاستراحات ، وحكى حسن ، أخذ يكتب الكاتب ؛ بعد التحية ، شرح حسن عن جمال المكان الذي هو فيه ، وعن صداقة أصدقائه ، وعن لسان قائده الحلو ، ثم تطرق لموضوع الحنة ، أمي الحبيبة ، سألني قائدي عن الحنة التي على رأسي ، ولم أعرف ، وقد أحرجت أمام أصدقائي ، حذار أن تحني شعور إخوتي عند ذهابهم للعسكرية ، كيلا يحرجوا مثلي ، إذا كان لها معنى فلتعلميني لأخبر قائدي » .

وأرسل المكتوب على طريق يوزغات ، ولكن كان يجب أن يوضع حدٌ للعدو الهاجم كالضبع ، لا وقت لانتظار قوات الدعم ، والقسم الثاني كان يؤدي مهامه في أقسى منطقة في الحرب ، لم يشهد العالم حربًا كهذه الحرب وكوحشيتها ، كان أبطال الأناضول بقوتهم المحدودة ، ولم يسمحوا للعدو بالمرور من خلال جدار أبدانهم المتراصَّة ، لكن العدو جعل بأسلحته التي تتقيء موتًا من

غاليبولو زهرة حمراء ، جعلت نيران جهنم هذه من القواد الأبطال اللطفاء والشباب الصغار شهداءً .

ومرّ شهران ، وفي هذه الفترة تابعت حلية تعقب العسكري حسن المحنى على وجه التحديد .

في يوم من الأيام وصل مكتوب إلى مقر القائد سيد سرِّ ، كاتب قرية يعقوب الأسود في مدينة ساراكيا ليوزكات ، المكتوب وصل لأم حسن ، وأمه ترسل مكتوبًا جوابًا له ، وقد كتبت الأم هتشة لحملها الصغير كالآتي :

« صغيري حسن حمَلي المحنى ، وصلت رسالتك ، كأني ملكت العالم ، قرأ لي كاتب القرية ، وبكيت ، أحببت قائدك ، ما أجمله من خبر ! إنه في مكانة والدك ، حذاري أن تخرج عن طاعته ، فليطلق صغيري النار عندما يأمره قائده ، أصبح لك أصدقاء كما أخبرتني من كارص ومن سييرت ومن أضنا ومن أوشاك ومن هاقياري ، وأحببتم بعضكم وتوافقتم ، هذا ما يليق بك لا شك ، هم أصدقائك في الدنيا والآخرة ، حذاري أن تجرحهم يا صغيري ، وأخبرتني أن قائدك قد سأل عن الحنة التي على شعرك ، عندنا هنا يزين شعر الأضحية المقدمة لله عز وجلّ بالحنة ، يا صغيري ، إن هذه الحنة سوف تكون علامتك في المحشر ، إنني سأجدك بسهولة

بفضلها ، وعندها سأصرخ بكل اعتزاز ها هو ابني .

أمك هتشة » .

قرأ السيد سرَّ المكتوب بعينين دامعتين ، ثم نادى ساعي البريد وقال :

ـ جدوا لي هذا اليوزكاتلي حسن المحنى ، سأقرأ عليه رسالته ، فإنه لا يعرف القراءة .

وعاد ساعي البريد بعد فترة ليست بطويلة ، لكن حسن المحنى لم يكن معه .

كانت حلية قلقةً لمدة أسبوع ، لم تنسى آخر مرّة رأت فيها حسن ، عندما أصابته طلقة خائنة الهدف وعندما ترنّح حسن قائلاً :

« حُرقت يا أمي » كانت مازالت تتخيل المشهد في مخيّلتها .

وعند آخر نفس قوله : « فلتشهدي يا أمي ، ها أنا أصبح شهيدًا للوطن ، وقوله الله أكبر قبل أن يسلّم روحه ، جعل كل هذا قلب حلية يُقتلع .

استشهد حسن ، ومازالت حلية في ساحة المعركة ، كانت تنتظر رسالة الأمّ هتشة ، وأخيرًا جاء .

وكان القائد على وشك معرفة الأمر ، قام ساعي البريد بأخذ وضعيّة الاستعداد وقال :

ـ قائدي إنّ حسن قبل أسبوع مضى إلى مقاتلة حق في أريبرونو .

رأت حلية الدموع المنهمرة بحرقة من السيد سرّ الضّخم .

ـ كان عليّ أن أعرف هذا ، كان علي أن أعرف أنّ الأضحية أن تكون محنّاةً ، وكل هؤلاء الأبطال محنون . . . لقد اختيروا ليكونوا قربان الوطن ، إنهم جميعًا حملٌ محنى كما هو حسن تمامًا . . . كان عليّ أن أعرف ، كان عليّ !

كانت تشعر حلية أن الأمر قد انتهى هنا ، لقد رأت الكثير وتعلمت الكثير ، تكاد تكون امرأة ناضجة في هذا الوقت القصير ، أخرجت دفترها وكتبت هذه الجملة :

« إن من كتب تاريخ هذه الأمّه هم حسن وأمثاله المحنّون » .

وعندما تركت حلية ذلك المكان للبحث عن قصة جديدة كانت تحمل حكاية حسن المحنى بجانبها .

* * *

جيش الشخصين

تم قريبًا إرسال خبرٍ يقول : عليك يا آتاكان أن ترى حكايتنا نحن الشخصين في هذه البلاد البعيدة ، لبّى آتاكان النداء ووجد نفسه بجانبهم ، وأخذ يشاهدهم :

كانوا من المسلمين الذين هاجروا من الدولة العثمانية إلى أستراليا ، أحدهما الخادم محمد الذي يبيع المثّلجات بعربته المعلق عليها العلم التّركي ، والآخر مولى عبد الله الذي يعمل في مجزرة ، يقال إن مولى عبد الله قد تواجد سابقًا في إستنبول ، حتى إنّهم قالوا إنه جاسوس السلطان عبد الحميد الثاني .

هذان المسلمان سمعوا نداء السلطان لبّوخ ، وأرادوا أن ينضموا إلى الجيش العثمانيّ فأرسلوا من مكانهم طلبًا بالانضمام للشّعبة العسكرية ، والجواب الذي جاءهم ، كان يعكس حقيقة :

« أنتم عثمانيون ، في حين نحن ذاهبون لمحاربة الدولة العثمانية بجانب الإنجليز ! » .

وبعد أن احتار محمد ومولى عبد الله وضعوا خطة ، حان وقت

إعطاء درسٍ للذين يحاولون الاستيلاء على أرض العثمانيين رغم كل تلك المسافة ، كان الخادم محمد يعرف استعمال السلاح كثيرًا ، وبعد تعليم قصير أصبح صديقه على علم بذلك أيضًا ، وبكل إمكانياتهم أخذوا سلاحين وما يكفيهم من الرصاص .

كان هناك جبلٌ اسمه بروكن هيلس قريبًا منهم ، كان العساكر يُرسلون بالقطار لقتال العثمانيين ، وهذان البطلان سوف يختبآن عند طريق القطار الذي يمر من وسط الجبل ، وسوف يعرقلان القطار الذي على متنه العساكر بكل ما أوتيا من قوة .

أخذ الصديقان أماكنهم بعد كل التجهيزات في الجبل في تاريخ ١ تشرين الأول ١٩١٥ ، ولم يمر الكثير حتى بدا القطار ، عندما رأى المكنيكي عربة مثلجات معلق عليها العلم التركي واقفة على السّكة الحديدية أخذ يزمر بلا توقف ، لم تتحرك عربة المثلّجات ، واضطر المكنيكي لشد المكابح شدًا أليمًا لإيقاف القطار ، ورأوا على الأحصنة في الجبل العلم التركي يرفرف ، وقبل أن يسألوا ما الذي يحدث ، انهال إطلاق النّار وخرّوا ساقطين على الأرض ، كانت حربًا قصيرة لكنها شديدة ، كان من في القطار أقل قوة من الذين على الجبل ، وانسحبوا بعشرات القتلى ، أرسل للمكان قوات حماية ، وهم أيضًا كانوا عاجزين ، هذه المرة هبّت القوات العسكرية للمساعدة ، تواصل الالتحام لساعات ، كان يظن الأستراليون أنهم

يقاتلون ضد خمسة مئة من الجنود على الأقل ، بل إن هذا القتال لا يقوم به أقل من هذا العدد من العساكر .

كان آتاكان مذهولاً بهذا المشهد ، وصفق للأبطال بكل ما أوتي من قوة .

أخيرًا استشهد الخادم محمد ، وكان مولى عبد الله يكمل القتال وحيدًا .

وذهب آتاكان بقرار آنيّ إلى مولى عبد الله ، بدأ الرصاص ينهمر على العساكر الأستراليين عند أول انقطاع رصاص الخادم محمد ، لم يكن يعلم كيف نجح بهذا ، حدث فقط ، كأنه أستاذٌ في الرمي ، كان سلاحه لا يتوقف ، ويصيب كل من سدد عليه .

وعندما التفت مولى عبد الله نحو الخادم محمد ، كان من الدهشة سيبلع لسانه ، كان سلاح الخادم محمد يطلق من نفسه ويغطي الأرض بعساكر العدو ، لم يكن هذا ممكنًا ، كان صديقه الشّهيد يستلقي على الأرض وسط دمه ، إذًا فمن يستخدم سلاحه ؟ إنَّ الله عز وجل يساعده .

قاتل هكذا مولى عبد الله فترة ، وبعد قليل سكت سلاح الخادم محمد ، ولاحظ عندما أخذ ينظر ما الذي حدث أن ذخيرة سلاح الخادم محمد قد انتهت ، ورأى مولى عبد الله السلاح ينزل بهدوء

على الأرض ، وشعر بأن من ساعده كان عسكري غير مرئي وهو يبتعد من هنا الآن .

وبعد أن نجح بأجمل شيء في حياته انسحب آتاكان وأخذ يتابع ما يجري .

وجاء وقتٌ سكت فيه سلاح مولى عبد الله ، وانتظر العساكر الأستراليون فترة جيدة ، وعمّ الهضبة سكون مطبق ، لا شيء يتحرك ، لكن ومن أجل الاحتياط صعدوا إلى الأعلى ، ووجدوا شهيدين اثنين مستلقين على الصخور ، كانا قد عانقا سلاحيهما بإحكام .

وغمر آتاكان حزن عميق .

ومازال الخوف داخل الأستراليين ، وبحثوا عن الأتراك لأيام في الجبل ، لكن لم يجدوا أحدًا ، إنهم فقط جنديان فعلوا كل هذه المقاومة .

خرج من مولى عبد الله ملاحظة :

« إن ما نفعله هو إلى الله وباسم السّلطان ، إنَّ جهادنا في طريق الحق ، إنَّ ما فعلناه يعلمه الله ونعلمه نحن فقط » .

وتكلم الأستراليون في هذا الحدث ، هذه الحرب الغريبة سُجلت بتاريخ أستراليا باسم « حرب بروكن هيلس » . والصخور

التي كان الجنديان مستلقين عليها سُميت بالصخرة التركية ، وعرضت عربتهم وأعلامهم وأسلحتهم في متحف .

وباسمهم أخرج ٥٠٠ من الأفغان علم عصيان مقاومةً ضد الأستراليون .

وبينما كان آتاكان يمسح دموعه ، قال « حلال عليكم » وكتب هذه الجملة :

« لا أهمية للحدود في الدفاع عن الوطن » .

* * *

سفينة الألغام نصرة
ضد الأسطول البحري الذي لا يقهر

علمت الدولة العثمانية أن الإنكليز يسعى لهجوم كبيرعلى تشنكلة قريبًا ، كان يجب أن يتصدّوا لهذا الهجوم بأي وسيلة ، لكن كيف سيحصل هذا ؟

حاول آتاكان معرفة الوضع في مقرّ العثمانية .

كان الضباط الألمان والأتراك يجهّزون الوضع في المقر ، أخذ تركيق حق الكلام وقال :

ـ نشرنا الألغام الألمانية في البحر كونها حديثة الصنع ، ندعو الله أن لا يصيب الألغام شيء ، وإلا فإنّا هالكون .

أجاب ضابطٌ ألمانيٌّ :

ـ لا تقلقوا إنّ الألغام التي نشرتموها هي من أحدث الألغام ، لا يستولى عليها بسهولة .

ـ تكون هكذا إن شاء الله . . .

ـ إذا كانت مفيدة هذه فلنقل نحن أيضًا « إن شاء الله » ، أما

نحن فإننا متأكّدون من فائدة الألغام .

قال قائد تركيّ :

ـ أفضل شيء أن ننتظر ، ننتظر ونرى . . .

بعد هذه الجملة انسحب القوّاد لكي يرتاحوا ، لأنّهم بحاجة للراحة .

كان البحر هادئًا بلا موج ، وكانوا كأنهم ينتظرون عاصفة .

لم يكن القواد الأتراك مرتاحين كالقواد الألمان ، وكانوا يخافون أن يحدث شيء للقنابل التي كان الألمان يثقون فيها .

كان القائد جواد باشا قد لاحظ المخاطر التي تقترب ، وإذا صارت الألغام الألمانية غير مؤذية فسوف يكون الوضع سيئًا جدًّا ، وجلس على كرسيّ بكل هذه الأفكار ، ونام . . . لأنه لم ينم منذ فترة .

ورأى حلمًا في نومه القصير ، في حلمه كان البحر كغطاء شديد الزرقة وهادىء ، وظهر فجأة نور فوق البحر ، وفوق هذا النور كان هناك حرف النون والكاف من الأحرف القديمة ، واستيقظ جواد باشا من أثر الحلم الذي رآه ، وتفحص ما حوله ، بحث عمَّن يمكنه تفسير حلمه ، فلم يجد .

وترك مكانه ليذهب السقم عنه بحجّة أنّه سيلقي نظرة على

الأحصن الأخرى ، وفي الطريق كان هناك مقبرة ، هنا ترقد ابنته التي ماتت في سن مبكرة ، دعا لها ، وفي أثناء خروجه من المقبرة قابله عجوز ذو لحية ووجه منير ، سأله العجوز :

ـ هل لديك مشكلة يا بنيّ ؟

شرح القائد للعجوز حلمه بعد أن أحسّ بالأمان الذي أعطاه إياه ، قال العجوز :

ـ يا بنيّ إن النور علامة النصر ، وأما عن الأحرف التي رأيتها فإنها تساوي عدد ٢٦ على حسب حسابات الأحرف القديمة ، انتبه على هذا الرقم ، ربما يكون مهمًا بالنسبة لك . قال ذلك وابتعد .

عاد جواد باشا ونادى القائد المسؤول عن القنابل .

ـ كم عدد القنابل التي في خزائننا .

وكان الجواب مفاجئًا :

ـ إن لدينا ٢٦ قنبلة مصنوعة على يد صانع محترف تركيّ ، إن الألمان لم ينشروها لأنها قديمة ، والآن يوجد في البحر ٣٧٧ قنبلة من صنع الألمان .

قال جواد باشا ، بعد أن نادى السيد حقّ رئيس وقائد سفينة الألغام نصرة :

ـ إذا كانت موجودة ، فعلى الفور انشروا القنابل ٢٦ في البحر .

كان الرئيس متحمسًا جدًا ، قال :

ـ أمركم يا قائدي .

يتبين أن التاريخ ٨ آذار ١٩١٥ ، كان الجو ضبابًا ، واستغل الرئيس سيد حق هذا وقام بكل احتراف بتوزيع القنابل ، وفوق هذا لم يضعها كما وضع الألمان قنابلهم مستقيمة على الساحل ، بل موازية له ، وفي طريق عودتهم كادت سفن العدو أن تمسك بهم ، كانت دورية للعدو قد أشعلت ضوئها وأخذت تقترب منهم ، وفكر الرئيس سيد حق وأصدقائه أنها النهاية ، كانوا يدعون الله فقط ، وقد استجاب الله لهم دعائهم في هذا الوقت القصير فقد جاءت موجة ضوء شديدة من جهة الساحل جعلت عيون الأعداء المندهشة لا تلحظ وجود سفينة الألغام نصرة .

كان الرئيس سيد حق وأصدقائه يعلمون أنهم نجحوا بأمرٍ عظيم ، والآن حان وقت الفرح ، ولكن في الحرب لا وقت للفرح أو الحزن ، وفوق هذا فهم غير مرتاحين من أعماقهم ، وفي هذه الحال فإنهم قد هبوا لهذه المهمة الصعبة بسرعة ، وبعون من الله تمت مهمتهم ، وخصوصًا عندما عبثوا بالأضواء كان هذا حماسيًا جدًا بالنسبة للرئيس سيد حق ، جعلته يشعر بألم في الظهر على غير العادة ، كان يبدو أن هناك شيئًا مريبًا ، وفي النهاية لم يحتمل قلبه

المتعب كل هذا التوتر ، التقط أنفاسه الأخيرة وهو ينظر في وجه القائد الآخر السيد ناظمي وفي وجوه العساكر الأبطال الذين كانوا على ظهر السفينة .

وكانت سفينة الألغام نصرة مع اقترابها من الساحل منتصرة تحضر معها أيضًا جثة الرئي سيد حقّ .

كانت الجملة التي كتبها آتاكان في دفتره ذات معنى عميق :

« ليس فقط العسكر منهم الأبطال بل سفينة الألغام نصرة تعتبر ذلك أيضًا »

* * *

سفينة الألغام نصرة في طرسوس

كان آتاكان يتلهف لمعرفة حال سفينة الألغام نصرة بعد الحرب ، وعندما كان يفكر بهذا الموضوع وجد نفسه فجأة في عام ٢٠٠٢ ، كان هناك اجتماعٌ يُعقد في بَلدة مرسين داخل مدينة طرسوس ، وأخذ يستمع آتاكان للحديث الذي يَدور بين رئيسِ البلديةِ السيّد بورهانتين وأعضاءُ المجلس بكل انتباهه :

ـ تعرفون أيها الأصدقاء أنّ سفينة الألغام نصرة ذات الأثر الكبير في نصر حرب تشنكلة كانت قد تُركت لتعفن في مرسين .

ـ أنتم محقون حضرة الرئيس .

ـ وقد بيعت سفينة الألغام نصرة في عام ١٩٦٢ كبضاعة يابسة ، وتركت بعد كل هذه الوسائل التي استخدمت فيها بحقيقة أن فائدتها الاقتصادية قد تمت ، وغرقت السفينة المسكينة في عام ١٩٩٠ .

ـ للأسف هذا ما حدث حضرة الرئيس .

ـ أخرجها بعض من المتطوعين من البحر وجعلوها تطفو .

ـ فلتسلم أياديهم رئيسي .

- والحملات التي ابتُدأت لجعل السفينة متحفًا باتت دون نتيجة .

- أنتم على حق حضرة الرئيس ، سمعنا أيضًا أنها ستباع بسعر الخردة وتصبح بلا فائدة .

- ما سمعتموه صحيح ، وإني لست راضيًا ، هل نستطيع النوم براحة ونحن ننتظر اليوم الذي ستصبح سفينة الألغام نصرة خردة بلا فائدة في ميناء مرسين .

- لن يستطيع أحد منا النوم بسكينة إطلاقًا يا حضرة الرئيس .

- إذًا فعلينا أن نفعل بعض الأمور .

- إن عرضي ؛ هو أن نشتري السفينة نحن ثم نعيدها إلى أصلها ونعرضها في حديقة في مدينتنا طرسوس .

- رائعٌ .

- مبارك لكم يا حضرة الرئيس .

- ولنسمي الحديقة التي سنعرض فيها السفينة « حديقة تشنكلة » إن رأيتموه مناسبًا .

- مناسبٌ حضرة الرئيس .

- مناسب .

وشعر آتاكان بالفضول بعد أن سمع هذه المحادثة بكل فضول عن

النتيجة ، لم يمر الكثير من الوقت حتى رأى بيع السفينة ، وشاهد كيف نقلت قطعها بالجرارات من مرسين إلى طرسوس ، توحدت قطع السفينة أخيرًا بحسب أصلها ، وفي هذه الأثناء عُلم أنّ هناك وفدًا من ٨ أشخاص قد أرسل إلى تشنكلة ، بحث هذا الوفد بكل المسائل التقنية لسفينة الألغام نصرة ، وفي عودتهم عمل بكل التصليحات اللازمة ، وأنقذت السفينة المسكينة من أن تصبح خردة ؛ ونظفت ؛ ولوّنَت ؛ وجهزت بنماذج للعساكر ، وبدأت بانتظار زوارها كمتحف حيّ .

انضم آتاكان لزوار سفينة الألغام نصرة ، وأعجب بها لدرجة أنه استصعب مغادرتها ، وأخيرًا ودع سفينة الألغام نصرة بعد أن دوّن هذه العبارة :

« إن الحفاظ على قيم الحرب مهم بأهمية النصر بحد ذاته » .

* * *

النصر الكبير :١٨ آذار ١٩١٥

إننا في المقدمة في هذا الوطن الحرِّ ، وفي زيادة ؛

وموجودون لألف مرة أخرى ، وفي كل ١٨ لشهر آذار .

خليل صوير

في يوم ١٨ آذار ١٩١٥ ، كان آتاكان يذهب ويأتي دون توقف بين سفن الإنكليز والفرنسيين .

كان الإنكليز والفرنسيون واثقين من الفوز ، يظنون أنهم قد نظفوا كلّ المنطقة من الألغامِ التي كانت ستعرقلهم ، لأن هذا أسفر عنه تقرير فاحص الألغام ، سيقتربون من الساحل بكل تبخترٍ ، وسيهدمون بقنابلهم الشديدة حصون العثمانيين ، ثم سيخرجون إلى تشنكلة ويمشون نحو إستنبول مشيًا ، كانوا يؤمنون بكل هذه الأشياء ، لكنهم لم يروا مرتجان وهو يراهم ، لم يكن لديهم فكرة عن فخ الموت الذي وضعته لهم سفينة الألغام نصرة ، ابتعد مرتجان في زاوية وأخذ يشاهد الأحداث :

كانت سفن العدو تتقدم في البحر الساكن ، ولم يمر الكثير من

الوقت حتى دخلت سفينة الحرب الفرنسيّة بوفيت منطقة الألغام ، ولحقتها سفن الإنكليز ، السفينة التي لا تقهر واوكان ، وانقلب المكان وكأن القيامة قد قامت بعد أن أخذت السفن تنفجر واحدةً تلوَ الأخرى ، لم يكن باستطاعة السفن فعل أيّ شيءٍ ، وبينما كانت السفن تغوص في عمق البحر في تلك المنطقة المجروحة ، كانت تعلو صيحات العثمانيين وتهليلاتهم قائلين : الله أكبر .

أخذت نصيبها سفن العدوّ في ذلك اليوم ، لكنها أنقذت من أن تغيب في أعماق التاريخ في آخر لحظة وعادوا مصابين من حيث جاؤوا .

وضعت أوروبا بكبرها حياة ملايين من الناس لتدخل الحرب ، وقد مات أو جُرح مئاتُ الآلاف من العساكر ، وظهرت أكثر من أربعة آلاف من السفن في عرض البحر ، ولكن أحدًا من هؤلاء لم يغير مسار الحرب كما فعلت سفينة الألغام نصرة بالألغام التي وضعتها .

لهذا فإن تاريخ ١٨ آذار ١٩١٥ تاريخٌ مهمٌ ، في هذا التاريخ انقلبت صدمة العدوِّ لهزيمة كبيرة .

لن ينسى العثمانيون تاريخ ١٨ آذار ١٩١٥ ، لم يكن هذا تاريخ انتهاء الحرب لكنه تاريخ انتصارٍ عظيم ، كان هذا التاريخ صاعقًا للعدو ، علمت فيه أوروبا أن تشنكلة مدينة لا تقهر .

كان آتاكان يشعر بأنه محظوظٌ جدًا لأنه أتى إلى يوم ١٨ آذار ١٩١٥ ، شهد خسارة طرفٍ وفوز طرفٍ ، لا يوجد سعادة تفوق هذا بالنسبة له .

أخرج دفتر ملاحظاته وكتب العبارة الآتية :

« حُقق النصر في تشنكلة بالألغام التي نشرتها سفينة الألغام نصرة » .

* * *

العريف سعيد

أنا سعيد العريف ظهري من حديد ،
أحمل من الأرض ثلاث مئة من قطع الرخام ،
وأقول يالله وأذهب نحو الملك ،
لا تبقى التربة بنصف فرح ،
وأنطلق مع الرصاصة ،
وهكذا أدفع ديني اتجاه الوطن ،
يُغسل هذا البحر الكبير بزمزم ،
تتحول تشنكلتنا إلى بلد الزهور ،
وليكتب الشعّار أسمائنا في ملحمة الركب ،
لا ينسانا التاريخ أيها الكتاب .

يوسف دورسن

كان يعلم آتاكان قصة العريّف سعيد البطوليّة ، حتى أنه ذهب مع مجموعة طلاب المدرسة إلى قرية العريّف سعيد وقابل حفيده

أيضًا ، وقد ندم كثيرًا لأنه لم يشارك في الزيارة التي في مدينة هافران داخل قرية بستان الصنوبر ، ولكنّه الآن سيشهد كل بطولاته ، وأخذ يشاهد بطولات العريّف سعيد بحماسٍ كبير :

كان العريّف سعيد ذا جسمٍ مصارعٍ ، في ذلك الزمن تزوج وأنجبَ فتاةً ، وفي نفس العام استدعي للجيش ، وبعد أن خدم في الجيش لمدة سنتين وحان وقت إصدار خطابه الرسميّ أعلن عن حرب البلقان ، ولأن كل معاملات التسريح قد أوقفت لم تنته فترة عسكريته .

خُسرت حرب البلقان وعاد العريّف سعيد إلى قريته بعد أن سُرّح ، ولم تمر سنة حتى بدأت حرب تشنكلة ، وأُخذَ إلى العسكرية مرة أخرى ، هذه المرة كان مكان المهمة مضيقَ تشنكلة في طوقِ قلعةِ روملي المكان المسمى بـ ٢٨ مدافع مجيدة ، هنا كان العريّف سعيد وأصدقائه الأربعون سيقومون بمهمة جندي سلاح المدفع .

وقد عُلم أن العدو يتجهز لشنِّ هجومٍ ضخمٍ ، لم يمر الكثير من الوقت حتى تقدمت سفن الإنجليز والفرنسيين داخل المضيق ، وأطلق العدو قنابله نحو الساحل لكن نجاحها لا يذكر ، كان العسكر يقاتل بروحه ؛ ويعلن بهذا عن قوة تشنكلة التي لا تهزم .

وبعد أن جاء الإنجليز مع ملكتهم اليزابيث ومدرعات المحيط

إلى كليتباهار التي فيها مدفع سعيد بدأوا يقذفون قنابلهم ، لم يكن الوضع مطمئنًا لأن قنابل الرخام قد أحاطت بالمدافع من كل جانب ، عندئذٍ أمر قائد المدفع :

ـ إلى الملجأ !

لكنه أمرٌ متأخرٌ ، فقد علق العساكر قبل دخولهم الملجأ بقنبلة رهيبة ، وكأنّ الأرض تحركت من مكانها ، استشهد معظم العساكر وأصيب قسم منهم ، وأنقِذ فقط الرئيس خليل والعريّف سعيد ونيدلي علي من دون أن يُصابوا ، وذهب الرئيس لإخبار المسؤولين قبل فوات الأوان بما حدث .

بعد أن تخطوا الصدمة بدأ العريّف سعيد يتفحص المكان ، أصبح مدفعان قطعًا متناثرة ، وبقيت مدفعة واحدة فقط ولكن رافعتها قد كُسرت ، من جهة كانت جثث أصدقاءه على الأرض ، ومن جهة أخرى كان العدو يتابع إطلاق القنابل ، يجب أن يُسْكِتَ أحدٌ تلك السفنَ ، كيف سيحدث هذا ؟ والمدفع الوحيد قد كُسر مرفاعُه ، وفي هذه الحالة فإن حمل رخام وزنه ٢٧٦ كيلو ووضعه في المدفع يبدو مستحيلاً .

فكر سعيد « إن شاء الله فسوف أنجح في فعل المستحيل » ، ثم أخذ قراره ، وقال لصديقه علي :

ـ ساعدني في رفع هذه القنبلة الرخامية للمدفع .

ـ هل جننت ؟ أنها تزن تقريبًا ٣٠٠ كيلو .

ـ فليكن إن من ينتصر في الحرب هم المجانين أحيانًا .

ـ . . . .

ـ هيا لماذا تقف ؟ ساعدني !

اغتنم آتاكان فرصة وقوف نيدلي علي الآنيّة وتقدم مسرعًا ، وحاول رفع القنبلة وهو يلتصق بطرفها ، ممكنٌ ؟ إنها لم تتحرك من مكانها .

وفي هذه الأثناء قرر نيدلي علي أن يتخلص من الذهول ومساعدة العريّف علي ، وانحنى مبسملاً على القنبلة ، وفي نفس اللحظة تحرك آتاكان نحو القنبلة ، ونجح نيدلي علي بوضع القنبلة على ظهر العريّف سعيد وقد صرف الجهد الكبير دون علمه بمساعدة آتاكان ، قال العريّف سعيد وهو يقف على ركبتيه :

ـ يا الله بسم الله

ودون أن يهتم بالحمل الذي على ظهره أخذ يتسلق سُلَّم المدفعية ، وبينما هو يعد واحد اثنان ثلاثة . . . كان قد تسلق سلم الثماني درجات ، وبينما كانت قواه على وشك النفاد جمع كل ما بقي لديه من طاقة ووضع القنبلة في مكانها ، وتنفس بعمق ، الآن

وقت إصابة الهدف ، ووجّه مقدمة المدفع نحو أوكان .

كان آتاكان يشاهد الأحداث بكل إعجاب مثل نيدلي علي تمامًا ، وقال العريّف سعيد مرة أخرى :

يا الله بسم الله . وأطلق القنبلة .

وبضجة كبيرة قُذفت القنبلة وأصابت الهدف ، كانت السفينة الضخمة تخور كما لو أنها تنين ينازع ، في تلك اللحظة ضربتْ بلغم من ألغام سفينة الألغام نصرة الموزعة ، ولم يهد للسفينة خلاص ، وغاصت بسرعة كبيرة في أعماق البحر .

وآتاكان الذي انقلب إلى مجنون من السعادة ، ماذا كان عليه أن يكتب للعريّف سعيد ؟ كان يعرف أن لا يوجد كلامٌ يوصف بطولاته ، ولكنّه حاول رغم هذا أن يصب مشاعره على الورق :

« لم يرفع العريّف سعيد ٣٠٠ كيلو من الرخام فقط بل رفع الأمة التركية كلها » .

* * *

لم ننجح من جهة البحر
فلنجرب جهة اليابسة

أنا جندي أنزاك ، ليتني لم أكن ،
ليتني لم آتي أمام المضيق ،
الجيوش التي لا ترى بالعين المجردة ،
وقفت قُبالتنا مثل القلاع ،
كان رئيس يحارب من أريكته ،
واحسرتاه ! كانت تشنكلة بحجم العالم ،
وسميّ المحارب بالغضنفر ،
أصبح العسكريّ منتصرًا من الأزل ،
رأيت بطلاً آخر مجددًا ،
إنني ميتٌ . . . سعيدٌ داخل تشنكلة .

يوسف دورسن

كان مرتجان يتابع المغامرة التي تحدث بين قوات الأعداء ، حُبس القائد الذي لم يحدد مكان الألغام التي وزعتها سفينة الألغام

نصرة ، وبعد عدة أيام حُكمَ عليه بأفظع العقوبات .

بدأ العدو بالعمل على الهجوم أرضًا بعد أن فشلت محاولاته بالعبور عبر البحر ، وبحثوا عن الطرق الأفضل للعبور عبر المضيق منذ ١٨ آذار حتى ٢٥ نيسان ، كان الإنجليز في ذلك الوقت يستخدمون الطائرة أيضًا ، وأخذ القواد الأنجليز بركوبهم الطائرات يحاولون العثور على طرقٍ بريةٍ للعبور ، وركزّ العدو اهتمامه كله على منطقة كاباتبه ، هذا يعني أن التحرك البريّ سيكون من هنا .

كان مرتجان يتابع الأحداث بكل اهتمام وقلق .

وكان في سفن الإنكليز والفرنسيين هناك عساكر أنزكيون أكثر من عساكر الإنكليز والفرنسيين نفسهم ، كانت قوات العدو قد جمعت هؤلاء العساكرَ من الدول المسيطرة ، وفيهم من هو مسلم أيضًا ، وبدأ مرتجان يسمع حديثهم بين بعضهم :

ـ حان وقت تلقين الأتراك الذين وضعوا سلطاننا في وضعٍ صعبٍ درسًا !

ـ إن مساعدة الخليفة السلطان هو دين في رقبة كل مسلم .

ـ والأتراك مسلمين لكن . . . .

ـ فلتنسى ، لو كان الأتراك مسلمين حقيقيين ما كانوا ألحقوا الأذى بالخليفة

ـ أنهم مسلمون زائفون !

ـ بقي القليل يا صديقي ، بقي القليل !

ـ لا مسألة من الغد ، ستمشي العدالة في مجراها !

ـ سنعطي الأتراك الظالمين درسًا !

حزن مرتجان كثيرًا على هؤلاء المسلمين المخدوعين .

التاريخ ٢٥ نيسان ١٩١٥ ، الساعة الرابعة فجرًا ، أمر قواد السفن الذين كانوا سيجدون مكان العبور في نفس الوقت نفس الأمرِ :

ـ فلتطفأ جميع الأضواء !

وغطى الظلام الكثيب سفن الحرب ، كانوا يتلهفون للخروج إلى اليابسة وهزيمة الأتراك ، وعلى صوت القواد بأمرٍ جديد :

ـ تقدم طريقًا كاملاً !

واقتربت السفن من الساحل كثيرًا ، وكاد الصبر أن ينفد عند العساكر ، ولم يتأخر الأمر الذي كانوا ينتظرون :

ـ فلتجهز القوارب المائيّة !

أُنزلت القوارب التي سيركبها العساكر ، كانت الأوامر تتلو بعضها :

ـ فليركب العساكر القوارب !

ـ فليصعد إلى اليابسة فورًا !

ـ لا تترك حجرًا على حجر !

أجيب على كل هذه الأوامر بكل حماسٍ .

أنزلت القوارب ، ركب العساكر ، وصعد القوارب المملوءة بالعساكر إلى كاباتبه .

بحثت قوات العدوّ عن خصم تقاتله ، لكن لا أحد من عساكر الترك حولهم ، غالبًا ترك العثمانيون الميدان فارغًا وهربوا ، هذا يعني أن بطولة العساكر الأتراك مجرد أوهام لا علاقة لها بالحقيقة .

وبعد أن تقدمت قوات العدوّ ثلاث أربع خطوات لم تفهم ما الذي حلّ بها ، وفهموا بعد قليل في أيّ بلاء قد علقوا ، فقد عرفوا أن كاباتبه رغم كل الأبحاث التي أقيمت والتي تقول أنها أفضل مكان للعبور عبر اليابسة كانت خطأ ، كان هناك جدار من الطين الجاف يقابلهم ، ومن المستحيل أن يتخطوا هذا الجدار ويعبروا ، وبدأ العساكر يتوترون وينظرون على بعضهم ، وتسمّع مرتجان كلام العساكر بين بعضهم :

ـ غير معقول !

ـ لم نعبر تشنكلة مرة أخرى !

ـ من قال أن الأتراك ليسوا أبطال !

ـ تبيّن أنهم أبطالٌ وأذكياء !

ـ لم أكن أتوقع نهايةً كهذه !

ـ أنا أيضًا !

ـ أنا أيضًا !

كانت هذه آخر كلمات العساكر ، فقد جعل الرصاص المنهمر قوات العدو القادمة من آلاف الكيلو مترات إلى تشنكلة يرقد في ظلام الأرض .

لم يستطع مرتجان عدم الحزن على هؤلاء الجنود المساكين الذين خابات آمالهم ، وحاول أن يعبر عن مشاعره بالكتابة على دفتر ملاحظاته : « لقد أحب العساكر الأنزك تشنكلة لدرجة أنهم اختاروها للموت » .

* * *

من يأذن هذا الأذان ؟

نحن من بُحّت أصواتهم . . .

فلا تدع المآذن بلا آذان يا الله !

ولا تجعلنا من دون محبة ، عطشى ، دون هواء ،

أو دون وطن يا الله

ولا تدع بلادًا جبلت على الإسلام

من دون مسلمين يا الله

عارف نهاد اسيا

توجه آتاكان نحو أصوات الجوامع التي كانت تؤذن متتالية متسائلا ماذا يحدث ، لم يكن أذانًا عاديًا ، وكأنه يُؤذن بشكل خاصٍ ويعطي رسالة للعدو ، ولم يكن معرفة السرّ أمرًا صعبًا .

عرف العساكر العثمانيّون أن في عساكر الأعداء مسلمون قادمون من الهند ، ووجدوا طريقة مبدعة يعبرون لهم أنهم مسلمون مثلهم تمامًا .

كان طيّار باشا قد نادى خمسين جنديًا ذوي أصواتٍ عذبة ،

وطلب منهم أن يؤذنوا أذان الفجر بأعلى أصواتهم في آن واحد ، وبعد قليل بدأ صدى صوت الأذان في قبة السماء يعلو .

وعمّ السكون المكان بعد أن انتهى الأذان .

لم يستوعب المسلمون القادمون من الهند الذين جاؤوا لمحاربة العثمانيين مع الإنكليز الأمر ، وأخذوا يقيمون الوضع ويتحدثون فيما بينهم :

ـ ألا يمكن أن يكون هذا الأذان حيلة من حيل العدو ؟

ـ لا لا أعتقد ، لقد أُذِّن الآذان كما هي العادة تمامًا

ـ في الحقيقة كانت أصوات الذين أذنوا جميلةً جدًا

ـ من يعلم ، من الممكن أن يكن منهم من هو حافظٌ لكتاب الله .

ـ ماذا قلت ، إن الحفظ من عادة المسلمين ، ألا يمكن أن يكونوا مسلمين ؟

ـ . . . . . .

ـ . . . . . .

ـ يوجد طريقة لمعرفة ذلك

ـ ما هي ؟

ـ فلنسألهم مباشرةً

ـ كيف ستسأل ؟ إنهم يقتلونك في مكانك ويأكلوك نيئًا

ـ كلامك صحيح ، وبحسب ما قاله الإنكليز فإن العساكر الأتراك بعد أن يقتلوا أعدائهم يأكلون لحمهم نيئًا .

ـ لن نذهب إليهم

ـ إذًا فكيف لنا أن نكلمهم ؟

ـ اتركوا هذا الأمر عليّ ، فليخرج من معه قلم وورقة ، سنرمي البوصلات التي سنكتب عليها بعد أن نلفها بأحجار ونرميها إليهم ، وننظر هل سيأتي ردٌّ ؟

لم يمر وقت طويل حتى بدأت الأوراق الملفوفة التي كتبها المسلمون القادمون من الهند تسقط على طرف العثمانيين ، وبعد أن فتحها العساكر العثمانيون قابلهم مكتوب كالآتي :

« نحن الجنود الهنود المسلمون ، قال الإنكليز إننا سنحارب الألمانيين بجانب العثمانيين ، وقبل قليل جاءنا صوت أذان من عندكم ، فمن أنتم ؟ »

لم يتأخر الرد من قبل الأتراك ، وكانت رسالتهم للعساكر الهنديين المسلمين بنفس الطريقة مكتوب فيها كالآتي :

« هذا المكان هو بوابة العاصمة العثمانية ، ونحن الجنود العثمانيون »

وتبين الأمر بكل وضوح ، لقد خدع الإنكليز المسلميين الهنود وأحضرهم إلى هنا ، لكن شمعة الكذب لم تتحترق حتى العشاء ، وعرف المسلمون الهنود الحقيقة قبل أن يطلقوا على أشقائهم في الدين رصاصة واحدة .

رفع المسلمون الهنود روؤسهم معترضين نحو الإنكليز قائلين :

لقد خدعتمونا ، لا يمكننا أن نطلق الرصاص على إخوتنا في الدين ، اتركونا نَعُدْ أدراجنا .

لكن عودة المسلمين الهنود المساكين كانت مستحيلة ، إنهم بكل الأحوال مستعمرون من قبل إنجلترا ، ولكن وبعد أن عرف القواد الإنكليز أن لا فائدة منهم أعادوهم لخدمتهم .

شهد آتاكان وجهًا آخرًا قبيحًا للحرب ، وكانت تترجم هذه الجملة التي كتبها على دفتره مشاعره :

« يبطل الله كل الحيل »

* * *

الحق يا رسول الله صلى الله عليك وسلم كتابك يضيع !

شهد آتاكان في هذا الزمن القصير العديد من البطولات ، وهو يتذكر حدث هذه المرةِ بجملةٍ ، ربما كانت هذه الجملة هي رأس سلسلة الأحداث ، وأحضرته هي إلى هنا .

كان السيد الرائد لطفي قائد الكتيبة الثانية الطابور الأول هو من جعل آتاكان متحمِّسًا فهو بطل الحدث ، كان السيد لطفي قد ترك الأعمال العسكرية الأساسيّة للقواد الآخرين ، كان يقضي وقته في تسخير الحيوانات وإصلاح سروجها فقط ، كان هذا الوضع غريبًا بالنسبة للعساكر ، حتى إنه كان من يستغيبه أيضًا ، كان قسم من عساكر السيد لطفي يتكلمون كالآتي :

كيف يكون لرائد أن يكون هكذا ، ليس لديه اهتمامٌ ولو بمقدار ذرة .

ـ إنه لا يعرف حتى ماذا يفعل عساكره .

ـ لم أر قائدًا لا يأمر عساكره هكذا

ـ لا يلزم ، فلنقم نحن بتجهيزات الحرب وليقم الرائد بأمور التصليح .

ـ ليته لم يكن ضابطًا ، وكان مصلحًا !

ووصلت كل تلك الكلمات لأذن قائد الكتيبة السيد العقيد علي ، قال السيد علي متهكمًا :

دعوا قائد الطابور وشأنه ، أنا ممتن من كل أحواله .

وقبل مرور أسبوعين انطلقت الكتيبة الثانية التي في أدرنة إلى تشنكلة ، وسكن العساكر في الأدرع التي تقع على مفرق بين سد البحر وكرافيزدة ، هذه الأدرع قريبة جدًا من أدرع العدو ، كانت المسافة بينهم وبين العدو لا تزيد عن ١٠ـ١٥ ، كان الفرنسيون والسنغاليون الذين يستعمرونهم يفوقونهم عددًا ، وفوق هذا فإن السنغاليين يتميزون بقوة البنية وهم أيضًا ماهرون باستخدام الساطور ، كان معظم عساكر الأتراك يستشهدون في الالتحامات المباشرة بسبب ضربات الساطور .

رأى آتاكان الطبيب حكمة أردا في أثناء التحام الطابور الثالث ، وأسر لدى العدو ، كان هناك سنغالي ذو بنية قوية ينتظره وعلى وجهه الشديد السواد قطرات العرق ، بيده ساطور ضخم ، كان يبدو أنه لم يبقى أملٌ لدى الطبيب .

وفي لحظة كانت تنزل فيها يد السنغالي الممسكة بالساطور فوق رقبة الطبيب على صوتٍ في قبة السماء يقول :

ـ الحق يا رسول الله صلى الله عليك وسلم كتابك يضيع !

هذه هي الجملة التي لم يستطع آتاكان نسيانها ، إنها الجملة التي سمعها من أستاذ العلوم الاجتماعية السيد بيرم يصيح بها هنا قائد الطابور الأول الرائد سيد لطفي ، قد ترأس العساكر وهو يصرخ بكل ما أوتي من قوة ، ويدعو الرسول الحبيب صلى الله عليه وسلم للمساعدة .

قال السيد علي قائد الكتيبة :

ها أنتم ترون هذا البطل الذي تكلمتم عنه الرائد سيد لطفي .

إذا نظرنا إلى العساكر فإنهم قد اعتزوا بصيحاته منذ زمن .

وكانت الجملة التي كتبها آتاكان تعليقًا على هذا الحدث كالآتي :

« لا يوجد دعاء لا إجابة له ، وخاصةً إذا كان من القلب » .

* * *

لماذا كلفت نفسك العناء يا رسول الله ؟

رأى آتاكان في يوم ٢٥ نيسان خيبة أمل العدو أثناء حركتهم في اليابسة بكل وضوح ، لكن كان من الواضح أن العدو لن يترك تشنكلة بسبب هزيمة أو هزيمتين ، وبالتالي كانوا يتابعون القتال بكل قوتهم ، لدرجة أن العساكر الأتراك اضطروا لمقاتلة ١٠ أضعافهم من عساكر العدو في غاليبولو . وعاشت غاليبولو ملحمة من الملاحم دموية في تاريخ ٢٧ نيسان ١٩١٥ .

في ذلك التاريخ قام العدو بالتحرك بقوة كبيرة من قرية مورتو إلى كارفيزدرا ، وكان العساكر الأتراك الذين يتصدونهم بحاجة للدعم الفوري ، وخرجت المجموعات الأخرى التركية لهذا الهدف من المناطق المجاورة إلى كارفيزدرا .

ومن قواد المجموعات التي هبّت لمساعدة العساكر كان هناك القائد المقدم سيد حسن .

قدم آتاكان لجانب السيد حسن تلبيةً لرغبة داخلية في نفسه ، وكما جرت العادة سيكون بجانبه ويعيش الحرب معه ، وبدأ يتبع المقدم السيد حسن بعد أن جمع كل تركيزه .

كان المقدم السيد حسن يتقدم مع عساكره ، وحدث شيء لفت انتباه السيد حسن عندما جاءوا إلى قرية كيليتباهار ، كان هناك نافورة ماء في وسط القرية ، وكان القرويّون يملؤون أباريقهم ماءً منها ، وكان هناك بضعة من الأولاد الصغار يلعبون حول النافورة ، وفجأة ظهر كلبٌ مجروح وشعره متساقط ، ومن الواضح أنه جائعٌ وعطشان ، وأراد الأطفال برميهم الكلب بالحصى أن يبعدوه عن النافورة التي كان يحاول أن يشرب منها .

ترجل المقدم السيد حسن من على حصانه ، حمل الكلب المسكين وأخذه إلى النافورة ، وأشربه من الماء ، ولف جراحه ثم انطلق آخذًا الكلب معه ، سمى السيد حسن الكلب جانبرك ، ومع مرور الوقت شفيت جروح جانبرك ، وأصبح الكلب لا يفارق السيد حسن ، وكان صاحبه يرعاه كثيرًا ، وتكونت بينهما رابطة جميلة جدًا .

بدأ المقدم السيد حسن القتال مع عساكره في كرفيزدا ، وكان جانبرك يكشف الأعداء عند غاراتهم ليلاً وبعوائه يعطي إشارة ، بفضل هذا كان العساكر يتجنب تدفق العدو بكل راحة .

بدأ هجوم قوي من قبل الفرنسيين في يوم ١١ تموز ، ونجح العساكر الأتراك بالتصدي للفرنسيين من خلف مدرعاتهم رغم

صعوبة ذلك ، وعلاوة على ذلك بادر العساكر الأتراك بالهجوم ، حتى إنهم جعلوا الفرنسيين يتركون مدرعاتهم ويهربون ، كان المكان مليئًا بموتى الفرنسيين ، وكان هناك شهداء وجرحى من العساكر الأتراك أيضًا ، كان الجرحى يُحملون من قبل أصدقائهم إلى أماكن الإسعاف ، أمّا الشهداء فدفنوا في المقابر التي حُفرت .

بدأ المقدم السيد حسن يدور في ميدان الحرب ، ولفت انتباهه عسكري فرنسي ، كان مصابًا على الأغلب ، إذًا فعليه أن يُسْعَف وأن تُداوى جروحه ولو كان عدوًا ، ولهذا السبب انحنى واقترب من العسكريّ الفرنسي ، وعندما انحنى وأخذ يفحص وضعه حدث شيء لم يكن في الحسبان ، قام هذا العسكري الفرنسي الذي لم يكن مصابًا في الحقيقة بطعن المقدم السيد حسن في صدره بسكينة كان قد أخفاها ، وفي نفس الوقت سُمع نباح كلبٍ من بعيد .

هرع جانبرك نحو صاحبه وكأنه علم ما حدث ، وبدأ يدور في الأرجاء .

كان جرح السيد حسن عميقًا ، وبقي مَنْ حوله بلا حول أو قوة ، وأخبروا إمام الكتيبة ، وعندما جاء الإمام كان السيد حسن يلفظ أنفاسه الأخيرة ، طلب السيد حسن من الإمام أن يقرأ عليه هذه الكلمات « لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم » ٣٣ مرّة ، وبينما

كان الإمام يقولها كان يحاول أن يردد معه .

كان السيد حسن يفقد قوته تدريجيًا ، كان يبدو وكأنه يرتجف ، وكأنّ عينيه تلاحقُ شيئًا في الأفق ، ثم قال بكل قوةٍ : « أوقفوني ! » وهبّ العساكر يلبون طلب القائد ، ووقف السيد حسن بعد أن تأبطهم .

وقال السيد حسن :

ـ لا إله إلا الله محمدًا رسول الله ،

ثم صبت شفاهه جملة أخرى :

ـ أخيرًا تفضلتم يا رسول الله !

كانت هذه الكلمات هي آخر ما تلفظ به المقدم السيد حسن ، كان مبعوث الله قد آتى من العالم الآخر ليستقبل الشهيد المقدم الذي سيدخل إلى الداخل دون أن يحرمه من بسماته .

بقي الجنود هناك في حيرتهم واقفين ، وبعد أن أفاق منهم البعض بدأوا يحفرون لقائدهم البطل قبرًا عند مكان استشهاده ، ثم عندما جهز القبر غطوا المقدم السيد حسن بالعلم التركيّ .

ولم يترك جانبرك صاحبه ولو للحظة ، ودخل تحت العلم يحتض صديقه قليلاً ، وجهز القبر ، فأبعدوا جانبرك قليلاً لينزلوا السيد حسن إلى قبره ، لكن كان رفع جانبرك أمرًا مستحيلاً ، كان

مستلقيًا بدون حراكٍ ، وعندما نظر العساكر إليه جيدًا عرفوا أنه قد لفظ أنفاسه الأخيرة ، وعاش العساكر صدمة ثانية حينها ، لا يمكن فعل شيء ، دفنوا قائدهم الحبيب أولاً ، ثم دفنوا جانبرك في حفرة كانوا قد حفروها عند نهاية قدمي المقدم السيد حسن ، لم يترك الكلب الوفيّ صاحبه حتى في رحلته الأخيرة .

« إن الأصدقاء الحقيقيون هم من يرجون الموت معًا » .

هذه الجملة التي كتبها آتاكان وهو يغادر ذلك المكان .

* * *

أنا آمركم بالموت !

ارتجف آتاكان مع أصوات القنابل التي تنامت إلى سمعه ، في الحقيقة كان معتادًا على صوتها ، لكن كان الصوت هذه المرة مختلفًا ، كانت القنابل المتتابعة تراكم أتربة الدخان ، وتجعل من لون السماء أحمر مشتعلاً .

كان يتبين من التقويم أن التاريخ ٢٥ نيسان ١٩١٥ ، قام العدو بالدخول من منطقة أريبورنو في ٥ فجرًا ، ومن الواضح أن الوضع لم يكن مستتبًا أبدًا عند العثمانيين ، كانت تجمعات المراقبة والحماية في وضعٍ صعب ، ورغم الخسائر الفادحة كانت الكتيبة ٢٧ تحاول المقاومة ، وفي هذه الأثناء حدث شيء لم يكن بالحسبان ، شُهد على عسكريّ أنه قال :

ـ أنا متزوج ، وعندي طفل ، لا أريد أن أموت .

ثم فرّ هاربًا .

وكان آتاكان يشهد للمرة الأولى حدثًا كهذا ، يهرب عسكريّ من الحرب ليلتقي بزوجته وطفله ، وفوق هذا لم يكن وحيدًا ، كان عدد

تاركي ميدان الحرب كحالته في تزايد ، وكان يصرخ عليهم من يحاول منعهم :

ـ لا هروب قبل الموت فداءً للوطن !

ـ لا شرف لمن يهرب من الحرب !

ـ استشهدُ ولا أهرب من الحرب !

ولكن لا نتيجة ، وأسوء ما في الأمر أنهم بدأوا يجرون الحشود معهم .

رأى آتاكان العساكر الهاربين يقفون جاثمين فجأة ، وبينما كان ينظر ويتسائل ما الذي يجري ، لاحظ قائد الشعبة ١٩ مصطفى كمال يقف قبالة العساكر ، كان القائد قد رمى نفسه بكل شغف وبدأ يتكلم مع العساكر :

ـ لماذا تهربون ؟

ـ سيدي ، العدوّ . . .

ـ أين ؟

ـ على هذه الهضبة . . .

ـ لا هروب من العدو .

ـ نفدت ذخيرتنا .

ـ إذا انتهت ذخيرتكم فلديكم حرباتكم .

ـ . . . .

ـ ركبّ الحربة !

ـ الأمر والطاعة !

ـ استلقي أرضًا !

ـ الأمر والطاعة !

رأى آتاكان العساكر الذين كانوا يحاولون الهرب يستلقون على الأرض واستلقى جنود العدو أرضًا أيضًا ، في هذه الأثناء أمر قائد الشعبة الضابط القيادي :

ـ اذهب إلى قائد كتيبة المشاة واطلب منه أن يرسل عساكرًا إلى هنا على الفور !

ـ الأمر والطاعة !

رأى آتاكان مجموعات المساعدة كيف جاؤوا بسرعة ، نظر القائد إلى عساكره ، وكان يتفهم العساكر الذين حاولوا الهرب قبل قليل ، إن الخوف من طبيعة الإنسان ، المهم أن تهزم الخوف ، وبالمحادثة التي فعلها جعل خوفهم يتلبد ، ولُبي أمره وجاءت القوات ، وارتاح العساكر الذين كانوا قد حاولوا الهرب عند رؤية

العساكر القادمين للمساعدة ، حان الآن وقت الهجوم ، قال القائد بكل عزم :

ـ أنا لا آمركم بالهجوم ، أنا آمركم بالموت ، حتى يحين موتنا ستكون القوات الأخرى والقواد قد استطاعوا القدوم .

وشهد آتاكان من جديد التحامًا آخر ، وكانت خسائر الطرفين فادحة ، وارتفع العساكر الذين حاولوا الهرب مسبقًا لدرجة الشهداء ، وبفضل هذا لم يتمكن العدو أن يتقدم خطوة واحدة .

كتب آتاكان هذه الجملة بعد أن شهد هذا الحادث :

« يجب على العساكر الذين يريدون الفوز أن يهزموا خوفهم أولاً »

* * *

مصطفى ابن عمر الذي من بوباتلي

رأى آتاكان كيف فاز العساكر الأتراك في ٢٥ نيسان في مدينة أرينبورنو ، وكان يفتخر بهذا ، ومن جهة أخرى فكان حزنه كبيرًا على الخسائر الفادحة التي تكبدها العساكر الأتراك .

وفي تاريخ ٢٥ أيّار ١٩١٥ حدث قتال دامي مرة أخرى .

شاهد آتاكان كيف جُمعت أغراض العساكر وسُجلت ، ثم كيف سُلم الجنود كأمانة للتراب بملابسهم التي كانوا يرتدونها مليئة بالدماء ، لم يبق شيء لم يخرج من أغراضهم ؛ صور أمهاتهم العجائز ، آبائهم ، وزوجاتهم الشابات ، أطفالهم الصغار ، أيضًا كلمات من القرآن الكريم ، قبعات شعبية قديمة ، سُبحات ، ويوجد رسائل كتبت ولم تسمح الفرصة لها أن تُرسل . . . وكان الشعر الذي يحمل اسم مصطفى بن عمر من بوياباتلي أكثر تأثيرًا من كل ما سبق .

بدأ القائد يقرأ هذا الشعر الذي كان على العسكريّ الشاعر بعيونٍ دامعة ، وخنق هذا الشعر الحزين بحزنه الحاضرين هناك وآتاكان أيضًا ، هذا قاله العسكريّ الشاعر في شعره :

ملحمة تشنكلة

استعذت وأنا أخرج ،

نظرت إلى القرية من على مكان مرتفع ،

ركضت مبكرًا إلى مقر القرارات ،

اليوم سيرضى عنّا الوطن ،

الفرد شهيد ، والجيش منتصر ،

أعطى أمره القائد في إحدى الياليِ ،

وبشكل جميل يدخل الأبطال إلى داخل الأناضول شاربين من الشهادة ،

اليوم سيرضى عنّا الوطن ،

الفرد شهيد ، والجيش منتصر ،

أُطلِق الرصاص على العدوّ ،

وجد الشهداء العرش في السماء ،

وصبَّ المنتصرون دموع الفرح ،

اليوم سيرضى عنّا الوطن ،

الفرد شهيد ، والجيش منتصر ،

أصوات قنابل العدو شديدة ،

ومزقت الأراضي . . .

لا نحل للفرنجية الجبناء ،

اليوم سيرضى عنّا الوطن ،

الفرد شهيد ، والجيش منتصر ،

سقطت دروعهم في أعماق البحار ،

ما هذا الهروب بعد أول هجوم ؟

اليوم سيرضى عنّا الوطن ،

الفرد شهيد ، والجيش منتصر ،

أيُسَلِّم الأتراك تشنلكة ؟

هل يتوقعون أخذ إستنبولنا ، هل يوجد عسكري كهذا في العالم ؟

اليوم سيرضى عنّا الوطن ،

الفرد شهيد ، والجيش منتصر ،

مصطفى ابن عمر البوياتلي

أثناء دخول الملحمة صفاء ،

تحقيق المراد طوافًا ،

اليوم سيرضى عنّا الوطن ،

الفرد شهيد ، والجيش منتصر ،

استمع آتاكان إلى هذا الشعر الأليم بفوائد يغلي ، كتب في دفتره في قسم السجعيات :

« اليوم سيرضى عنّا الوطن ،

الفرد شهيد ، والجيش منتصر » .

* * *

العريف مستجيب

تذكر آتاكان عندما سمع تهليلات النصر في أول أيام رحلتهم عبر الزمن ، وكانت قوات العدو واثقة من الفوز لدرجة أنها في أثناء الاستعداد كانت تتجهز لاحتفالات النصر ، وفهموا مع الوقت أنّ هذا صعبٌ جدًا بل مستحيل .

بدأ آتاكان يتابع العريف مستجيب ونجاحاته ، عريف مدافع بورصة المدينة الجديدة عبر حوادثها ، وأحسّ أنّه سيكون له حكاية استثنائية .

كان التقويم يظهر تاريخ ٣٠ أكتوبر ١٩١٥ .

كان من بين الغواصات التي قفزت على سطح الماء وهاجمت الأتراك حتى ظنّوا أنهم يُختَطفون غواصة فرنسيّة تدعى فيروزي ، كانت الغواصة تتقدم بخبثٍ نحو كيليتباهار بهدف أن تمرّ عبر المضيق ، ولكنّها لم تكن على علمٍ بما ينتظرها من مخاطر ، لم تكن تلك المخاطر سوى العريف مستجيب ، كان هذا بطل حارس المدفعيّة يحرس البحر مع المراقبين ، وكانت الأمواج تتدفق إلى

هذه الجهة حينًا وإلى تلك الجهة حينًا أخرى كأنها تُخبر بالخطر القادم .

ولم يمضي كثير حتى بدأ منظار الغواصة فيروزي بالارتفاع فوق سطح الماء ، وأمسك العساكر الأتراك هذا الحدث بسرعة ، وبينما كانت الغواصة تستعد للصعود فوق سطح الماء ، تلقت قنبلةً من العريف مستجيب جعلتها تتزعزع ، وتلت القنبلة المرمية على مقربةٍ من فيروزي قنبلة أخرى ، وهذه المرة وقعت القنبلة أقرب بكثير ، ولم تنجو الغواصة فيروزي عندما حاولت الهرب من الهدف الثالث للعريف مستجيب ، بدأ الوحش الضخم يزمجر وهو يموت ، لا شيء يمكن فعله ، لم تعد كوحشٍ إنها الآن تشبه فأرًا محاصرًا في فخٍ ، أمّا طاقم الغواصة ٢٨ قام بأفضل ما يمكنه فعله وهو أن يُسلم نفسه .

سُحبت فيروزي إلى ميناءٍ آمن ، وشاركت إلى جانب السفينة المتضررة في مراسم السلاح الحربي العثمانيّة .

وتواجد الرئيس أنوار بنفسه في المراسم ، وقال للعريّف مستجيب :

ـ أبارك لكم إنجازاتكم المتميزة الظاهرة ، أريتم كل العالم بطولة العساكر الأتراك ، وكمقابل صغير لخدماتكم غيرنّا اسم فيروزي

ليصبح اسمكم ، ولدينا هدية صغيرة أخرى ، هذه الميدالية التي سأقدمها لكم ، هي فقط جائزة البطولة الحقيقة ، أرجوكم أن تقبلوها .

علّق الرئيس أنور الميدالية التي في يده على رقبة العريّف مستجيب ، كان العريف مستجيب في حالٍ لم يعرف ما عليه فعله من الفرح والحماس .

وعندما سأل الرئيس أنور :

ـ هل لديك أيّ رغبةٍ أخرى أيها العسكري .

ـ رغبتي الوحيدة أن لا تطأ قدم العدو هذه الأرض المباركة ، ومن أجل هذا فإنني جاهز لتقديم روحي كأيّ عسكريّ آخر فداءً للوطن ، يا قائدي !

ـ أنا متأكدٌ من هذا يا ولدي ، متأكد !

وكانت الجملة التي دونها آتاكان على أثر هذا الحدث كالآتي :

« إنّ الجيوش التي تستخف بأعدائها وجبت عليها الهزيمة » .

* * *

حتى على المستشفيات سكبوا القنابل

تقاتلوا ، أصبحوا أسرارًا لأرواحهم .

وفي النّهاية أصبحوا إخوانًا للأجل .

وأصبحوا الشّمس التي لا تغيب في الأفق .

كانوا باسلين ، شجعان وأبطال .

كانوا قلوبًا تضرب الظلم بشدّة .

بيستامي يازجان

التقويم كان ١٠ مايس عام ١٩١٥

كان آتكان قد جاء إلى مستشفى علّق عليها علم الهلال الأحمر ، كان وكأنه يشعر بداخله ما سيحدث .

الأطباء والممرضات كانوا يتقدمون كموكب بين العساكر الجرحى ، وكان هدف العسكري الوحيد هو الابتعاد من هنا بسرعة والذهاب إلى الجبهة ، ولكن بعضهم كانت يده قد قطعت وبعضهم الآخر رجله ، ومنهم من قطع إصبعه ، ومنهم من فقد عيّنه ، كان

وضع معظمهم صعبًا ، وفي هذا الوضع كانت عودتهم إلى الجبهة ليس ممكنًا .

كان من المعتاد أن يترجى عسكريّ الطبيب قائلاً :

ـ سيدي الطّبيب ، اتركني اذهب ، لا أتحمّل ترك أصدقائي وحدهم .

ـ لا يمكن ذهابك .

ـ ولم لا ؟ أذهب كالأسود أيضًا .

ـ قلت لك لا يمكن ذهابك .

ـ هل الجروح الصّغيرة التي في قدمي ستمنعني ؟

ـ لم أرد إزعاجك ، ولكن بما أنّك مصرّ . . .

وقبل أن ينهي الطّبيب كلامه ، رفع العسكري الجريح الغطاء عنه بنظرات متعجبة ، وفجأة صرخ : « ويلي يا أمّي ! » ، كانت قدما العسكريّ قد قطعتا ، كان العسكريّ يصرخ من جهة ويكمل ترجيه من جهة أخرى قائلاً :

ـ أعطوني سلاحًا على الأقل ، أحارب وأنا جالس !

أحضروا سلاحًا للعسكريّ المقطوع الأرجل ، وكأن النّار كانت تخرج من عينيه وهو يضمّ سلاحه ويقبّله كالرّضيع .

وبعد قليل ظهر منطاد عائدٌ للإنكليز .

وبعد أن قام المنطاد بجولة حول المستشفى ، رمى القنابل على الجرحى .

وفجأة تحوّل المكان إلى يوم عيد الأب ، ومات هناك ٣٠ شخصًا من الجنود الأتراك ، وأعطى الجندي التّركي نفسه الأخير دون أن يجد هدفًا ليرميه بسلاحه .

طلبت الدّولة التّركيّة بعد هذا الهجوم « الخارج عن حقوق الإنسان » تنبيه إنجلترا عن طريق ولاية أمريكا ، ولكن الحادثة كانت قد حدثت وانتهى الأمر ، كان الإنجليزيون لم يهتمّوا لقواعد الحرب العالمية .

كتب آتكان على دفتره بعد أن جُنّ من غضبه :

« وحتى الظّالم له حدود ، لقد تعدّى من رمى المشافي بالقنابل هذه الحدود منذ زمن بعيد »

* * *

الجزء الثّالث
معبر الأبطال

هذا الوطن ، في صرخات ترابه الدّاكن .

في الواقفين كأنّهم سلاسل جبليّة واقفة .

ومن أجله في كل هذا التّاريخ .

في الذين أعطوا أنفسهم للتّاريخ .

الذين مضوا في طرقاتهم دون النّظر إلى الوراء .

الرّاكضون والذين يجدون طرقاتهم من حدود إلى حدود .

يلمع كالبرق ، ويسيل كالفيضان ،

هم من يستفسرون من جبهة إلى جبهة .

أورهان شايك غوكوي

* * *

هل من السهل أن تكون (شفيقة) ؟

وجدت حلية نفسها قبل الحرب فجأة ، كانت في حديقةِ أكاديمية الفنون الجميلة ذات اسم قديم « دار الفنون » ، كان الطلاب قلقين من الحرب التي تقترب ، ورغم هذا كانت الحياة مستمرة ، كل واحد منهم كان لديه فكر يختلف عن الآخر .

ويالللأسف لم يكن الزواج ممكنًا ، فقد دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى ، ليس وقت الزواج الآن ، إنه وقت الهروع إلى الجبهة ، وهذا ما كان سميح سيفعله .

ـ عزيزتي شفيقة ، تعلمين أن الحرب اندلعت . . .

ـ أعلم . . .

ـ وأنا إلى الحرب . . .

ـ أعلم هذا أيضًا ، ستذهب إلى الحرب ، ولكن تفكيرك يبقى معي . . .

ـ صحيح ما قلتي يا شفيقتي . . .

ـ إذا فلأقل شيء صحيحًا آخرًا .

ـ لم أسمع منك شيء خاطئًا حتى الآن .

ـ ستذهب إلى الحرب ولن تبقى عيونك تتلفت ورائك !

ـ . . .

ـ ولكنّ لدي شرط . . .

ـ قولي يا نور عيني . . .

ـ لن تتركني دون رسائل .

ـ سأكتب لك أغلب الأوقات ؛ والرسائل المرسلة منك ستعطيني قوة كبيرة . . . وأنا لدي طلبٌ منك .

ـ إنّ طلبك أمرٌ بالنسبة لي يا سميح ، أخبرني من فضلك .

ـ إن حدث لي شيءٌ . . .

ـ الله أكبر يا سميح أرجوك لا تفكر بهذه الأمور .

ـ إن حدث لي شيءٌ . . .

ـ أن أكون مخطوبةَ شهيدٍ شرفٌ لي .

ـ إن حدث لي شيءٌ تزوجي من جنديّ جريح استطاع النجاة من الحرب . . .

ـ قلت لك ألا تفكر بهذه الأمور .

ـ عديني ، عديني . . .

ـ قلت لك ، إن كل طلباتك أوامر بالنسبة لي .

ـ سلمكِ الله يا شفيقة . . . فليرضى عنك الله . . . الآن أستطيع الذهاب إلى الجبهة بقلبٍ مرتاح .

أَثَّرَ مشهدُ الوداعِ بين سميح وشفيقة في حلية كثيرًا ، وتمنت من كلّ قلبها أن يتزوج هذان الشابّان ويكونا سعيدين .

ذهب سميح إلى الجبهة مهرولاً ، وكما وعد لم يترك شفيقة دون رسائل ، ووجد بعض المواساة في رسائل خطيبته ، كتبت له رسائل تغمرها الحسرة ، وكان سميح يحكي عن قائده جلادة في رسائله ، لم يكن ينهي مديحه الدائم عن شجاعته وعن صداقته .

وفي يومٍ من الأيام لم تعد تأتي رسائل سميح ، كيف لها أن تفعل ؟ . . .

لا يستطيع الشهداء كتابة الرسائل لكنهم يستطيعون الدخول في الحلم ، ورأت شفيقة في منامها سميحًا ، وكان داخل غيمة بيضاء ساطعة ، وكانت رائحة فواحة عطرة تعم المكان ، علّها رائحة الجنة .

وفي اليوم التالي لم تهتز عند تلقي الخبر القاتم ، كانت تفخر بكون سميح شهيدًا .

كانت حلية تتابع شفيقة ، يا ترى ماذا ستفعل ؟ لو كانت

هي مكان شفيقة ، ماذا كانت لتفعل ؟

قررت شفيقة قرارًا ، ستصبح ممرضة ، ستسعف الجنود الجرحى المنتصرين .

كان الجيش بحاجة ماسة لشفيقة وأمثالها من الممرضين المتطوعين ، بدأت بسرعة بالعمل في أحدى المستشفيات ، قال شفيقة : يا الله ، ما أكثر المصابين !

ساعدت بكل قوتها العساكر الأتراك... لفَّت جراحهم ، وشاركتهم بكائهم .

وفي يوم من أيام عملها ، قال الطبيب :

ـ سيدة ممرضة إن هذا الضابط الذي في السرير بطل عظيم ، أريد منكم أن تهتموا فيه خصوصًا .

وفي تلك اللحظة دخل شخصٌ ، وأخبر عن قدوم قائد الحامية العسكرية لزيارة المصابين .

وبعد أن قال القائد لجميع المصابين عليكم العافية ، عمل بما قال له الطبيب وأخذ يهتم بالجرحى واحدًا واحدًا ، ثم بعد أن علّق على عنق الضابط مدالية شرف قال :

ـ إنّ هذه الميدالية تبقى أمام بطولاتكم بلا معنى ، إننا نعيش براحة بفضل الأبطال الذين مثلكم ، فلتسامحونا .

حاول الضابط أن يعتدل من استقائه لكنه لم ينجح ، فأعطى الجواب من مكان استلقائه :

ـ فليسلم وطننا الذي ربانا لنحيا في هذه الأيام ، فليكن آلاف من جلادة فداءً للوطن !

كانت شفيقة تذكر هذا الاسم جيدًا ، إن هذا الضابط على الأغلب هو جلادة الذي كان يتحدث عنه سميح في رسائله .

قال القائد :

ـ أبارك لكم ترفعكم رائدًا السيد جلادة

ـ أشكركم يا قائدي ، أنكم اليوم أعطيتموني الشرف والمجد ولكني تمنيت الشهادة كالملازم سميح .

اهتزت شفيقة عند سماع اسم سميح من الصميم ، بدأت تبكي من الداخل ، وكان جلادة يكمل :

ـ الملازم سميح استشهد فداءً للأرض المقدسة كي لا يمضغها العدو ، أما أنا فأعيش معاقًا . . .

في هذه الأثناء دخل عسكري إلى الداخل وأخبر أن أمه جلادة قد أتت ، قالت المرأة المهرولة إلى الداخل :

ـ آهٍ يا صغيري ، وعانقت صغيرها قائلة : جلادي ، وقبلت فلذة كبدها حتى ترتوي .

كان هناك شيء غريب في الأمر ، كان جلادة لا يبادر أمه العناق رغم كل شفقة الأم .

وقالت كأنها تشكي :

ـ أنتَ أيضًا عانق أمك يا ولدي .

تكلم جلادة وكأنه يهمس :

ـ ارفعي الغطاء وألقي نظرة يا أمي العزيزة . . .

فقدت الأم سيطرتها على نفسها من النحيب ، كان المشهد التي رأته مخيفًا عندما رفعت الغطاء ؛ يد جلادة مقطوعة من الكتف والأخرى من المرفق ، وقدمه مقطوعة من الركبة والأخرى من المؤخرة !

كان المشهد رهيبًا لم يحتمله قلب الأم ، وحقيقة لم يحتمل قلب المرأة العجوز ، وصعدت روح المرأة المسكينة في المكان .

لم تعلم حلية ما عليها فعله بعد ما رأته ، تابعت الأحداث بعيونها الدامعة فقط .

قال جلادة :

ـ يا إلهي أحييتني في هذه الحال ، لك الحمد حتى ترضى ، كانت أمي ترعاني في وضعي هذا ، وذهبت هي أيضًا ، ماذا أفعل أنا الآن ؟ من يعتني بي من الآن فصاعدًا ؟

لم يحتمل القائد وقال :

ـ تأكد يا ولدي يوجد من تتزوجك بحالتك هذه من بناتنا العفيفات التي ستكون لك عينًا وأذنًا .

كان يعتقد جلادة أن القائد يتكلم هكذا ليعزيه فقط .

ـ أتفهم يا قائدي ، ولكن من يتزوج رجلاً مثلي ؟

كانت شفيقة قد حسمت قرارها منذ ذلك الحين ، قالت :

ـ أنتم مخطئون يا سيد جلادة ! إنّ القيام على خدمة منتصرٍ مجيد كأمثالكم يشرفني ، وهل تعرفون أيضًا ؟ . . .

سكتت شفيقة للحظة ، وسكت الجميع أيضًا ، ثم تابعت حديثها بكل قوة :

ـ هل تعرفون أني كنت خطيبة الشهيد الذي مدحتموه الملازم سميح ! لقد قال سميح لي . . .

كانت تستمد شفيقة في حديثها القوة من الحزن والارتعاش ، ثم جمعت شتاتها وأكملت :

ـ لقد قال لي سميح : « إذا استشهدت ، تزوجي من عساكر تشنكلة المصابين المنتصرين ! » وبزواجي بكم سأحقق وصية سميح .

نظر القائد إلى شفيقة بكل إعجاب وقال بصوتٍ من القلب :

ـ فليرضى عنك الله يا بنيتي ، حلال عليك خبز الوطن أيضًا .

كان المشهد مليئًا بالعبر ، من إحدى الجهات دموع ومن جهة أخرى سعادة وفخر . . .

كانت حلية تعد نفسها محظوظة لأنها شهدت حدثًا كهذا ، وفكرت « إن كنت مكان شفيقة هل كنت سأفعل مثلها ؟ » ثم قالت بكل عزم :

ـ كنت فعلت ، بالطبع كنت فعلت ، أنا أيضًا أحب هذا الوطن كثيرًا !

ثم كتبت على دفتر ملاحظاتها كما كانت تشعر تمامًا :

« تُترك الروح فداء الوطن ويترك الحبيب أيضًا ! »

* * *

فاطمة السوداء

كانت حلية تبدو كأنها لن تتفاجأ بشيء بعد الأحداث التي شهدتها ، وفهمت أن تلك الأحداث كانت سبب النصر في الحرب ، وما حدث لفاطمة السوداء لم يثير عجب حلية .

لم تسمَّىٰ هكذا ؟ لأن لونها أسود ، بل لأنها كانت لا تمل العقبة ، كان والدها قد ذهب إلى الجبهة ، ولم يعد .

أصبحت فاطمة السوداء في عمر ١٧ عاما أمًا مع الأسف ، جاء زوجها إليها في يوم ولادة طفلها ، أخذ الطفل إلى حضنه وقبله واشتمه ، ثم زرع على جبين فاطمة السوداء قبلة ، كان يشعر بالمرارة وهو يفعل كل هذا ، لم تحتمل فاطمة السوداء ، قالت :

ـ هناك أمر مريب بك . . .

ـ لا يا عمري . . .

ـ لماذا أنت راكدٌ هكذا ؟ هل يركد من لديه رضيعٌ ذكر هكذا ؟

ـ لا ولكن . . .

ـ . . . .

ـ تعرفين وضع المملكة .

ـ ماذا به وضع المملكة ؟

ـ لا تتكلمي وكأنك لا تعرفين ، يبدو أن هذا الرضيع قد أنساك الحرب !

عندها فهمت فاطمة السوداء كل شيء . . . يعني ذلك أن حان دور زوجها بعد أبيها ، فكم رجلاً بقي في القرية يحمل السلاح ؟ كانت تعلم أن الدور سيأتي في يومٍ من الأيام ، وها قد جاء ذلك « اليوم » .

تكلمت عيون الشابان دون الحاجة للكلام شفويًا ، قال زوج فاطمة السوداء :

ـ سامحيني ، وتابع :

ـ طفلنا أمانة عليك !

اعتدلت فاطمة السوداء من سرير مرضها بكل عزم وقالت :

ـ اذهب بالسلامة ، صار لنا طفل قبل أن يُنقذ الوطن فما الفائدة ؟

كانت تسمع حلية أجمل الجمل المؤثرة ، فعلاً ما قيمة أن تكون صاحب طفل قبل أن يُنقذ الوطن ، مع أنهم كانوا يعيشون حياتهم اليومية في هناء ، كانوا لا يحملون الهمّ بسرعة ، كان كل ما يبحثون

عنه « طرق تسهيل المعيشة » ، حتى أنّهم لم يخطر في بالهم سيسعون لمستقبل الوطن في يومٍ من الأيام ، أمّا حلية التي بدأت تدرك هذا الأمر ، وعدت نفسها بأنها ستعمل من الآن فصاعدًا ليس فقط لنفسها بل ولجنة وطنها أيضًا .

ومرَّت بضعة أشهر ، كانت الحرب تستمر بلا رحمة ، كان يجب أن يُجلب رصاص إلى الجبهة ، ولكن لا يوجد في القرية أحد من الرجال ولا حتى صبيٌ .

قررت فاطمة السوداء قرارًا ، كانت ستجلب الرصاص إلى الجبهة بنفسها ، عارضت والدتها وحماتها هذا القرار ، لم تستمع إليهما ، كان يجب أن يستجلب الرصاص إلى الجبهة بأقرب وقت ، وإلاّ فمن الممكن أن يذهب الوطن .

دخلت إلى الإصطبل ، أخرجت الثيران المخضرمة ، وجهزت العربة ، ووضعت الرصاص الذي أخذته من غرفة القرية بكل اهتمامٍ في العربة ، ولم تلتفت حتى إلى القرويين الذين حاولوا منعها ، أخذت طفلها على حضنها ثم قالت للثيران :

ـ هيّا ، فقد أصبح على عاتقنا العمل .

أسرعت الثيران مهتزةً وهي تجر العربة ، كانت سرعتهم بطيئة جدًا ، لا بأس هذا أفضل من الجمود بلا حركة ، هذا مافكرت به .

بدأ المطر يهطل بعد قليل ، وعندها اضطربت فاطمة السوداء ، ماذا إذا تبلل الرصاص ؟ كان ليذهب كل الجهد سدى ، ومن دون تفكير أخذت الغطاء الذي كان على ابنها وغطت به الرصاص ، ثم ضمت طفلها بكل قوة إلى صدرها .

وتقدموا بهذا الشكل قليلاً ، رأت بعد مسافة قريبة نُزلاً ، وجمعت كل طاقتها لكي تصل إلى النُّزل ، وأخذت تطرق باب النُزل بقليلٍ من الأمل .

سُمع صوت من الداخل ، صوتٌ يقطع الأمل :

ـ لا يوجد مكان !

كان المطر يهطل خارجًا ، يوجد فوق الرصاص غطاءٌ لكنه لن يصبح ذا فائدة بعد فترة ، ضغطت فاطمة السوداء طفلها إلى صدرها ، ونادت مرة أخرى على صاحب النُّزل :

ـ فلتأخذ الرصاص داخلاً ، أنا أستلقي مع طفلي خارجًا !

فُتح باب النُّزل بهدوء ، قالت صاحبة النُّزل العجوز :

ـ أخبريني يا ابنتي ، أدخلت الرصاص داخلاً ، ثم تابعت :

ـ لا مكان هنا فعلاً ، من الأفضل أن آخذك إلى بيتنا ، تمد لك عجوزنا سريرًا على الأقل ، وأنا أعود إلى هنا ، وتكملين رحلتك عندما يحل الصباح .

أرادت فاطمة السوداء أن تقبل يد صاحبة النُّزل ، لكنها كانت مشغولة بمسح دموع عينيها محركة رأسها جانبًا .

شهدت حلية بطلاً آخر ، وهذه المرة كانت الجملة التي كتبتها في دفترها كالآتي :

« إن العيش في الوطن له ثمنه ، ولو كان هذا الثمن الآباء أو الأزواج أو الأبناء » .

* * *

إذا جاء والدك

كانت رحلة حلية هذه المرة في بالكاسير ، رأت عندها انتظار امرأة طول حياتها لزوجها الذي لم يعد من الجبهة .

كانت قد حدثت حكاية حزينة في بالكاسير كما حدثت في أنحاء كثيرة أخرى في المملكة ، كانت السّيدة آدية قد تزوجت في سنّ مبكّرة وكانت حاملاً ، وقبل أن تلد ذهب زوجها إلى الجبهة ، وكما توقّعت لم يعد بعدها ، وجاء ذلك اليوم وولدت السّيدة آدية ، وجاءها صبيٌّ مثل كرة من نور ، وعندما كبر الولد قليلاً وبدأ يفهم الكلام بدأ يرى في أمّه تصرفات عجيبة ، كانت تقول له أمّه عندما تذهب إلى أي مكان :

ـ ابني ، إذا جاء والدك نادني بسرعة .

لم تتحمّل حلية وضع السّيدة آدية ، كانت الحروب بالنّسبة لها ليست في الجبهات فقط ، وإنّما هي بتأثيرات ما خلف الجبهة أيضًا ، ولكن ألا يجب على هذه التأثيرات أن تخفّ أو تختفي تمامًا مع مرور الوقت ؟ رأت حلية أنّ هذه التأثيرات تبقى طوال العمر عند البعض .

كانت هذه المرأة المشوّشة تقول ذات الشيء أينما ذهبت :

ـ أنا ذاهبة إلى الجارة ، إذا جاء والدك نادني .

ـ أنا ذاهبة إلى المولد ، إذا جاء والدك نادني .

كبرت السّيدة آديا كثيرًا ، وفي وضعها هذا أيضًا كانت تقول ذات الشيء لابنها دائمًا ، وفي النّهاية مرضت المرأة العجوز ، وكان وضعها سيّئًا ، نادت ابنها إلى جانبها وقالت :

ـ لقد رعيتمنوني جيّدًا ، رضي الله عنكم ، سامحوني .

ثم تابعت :

ـ إذا جاء والدك أخبره أنني انتظرته حتى متُّ .

استلقت السّيدة آديا على الأرض بجانب نظرات الاستغراب على من كان هناك ، وابتسمت ناظرة إلى الباب وقالت :

ـ أهلاً بك ، أهلاً بك .

وكانت هذه آخر كلمات السيدة آديا .

« انتظار شخص يستحق الانتظار ، يستحقّ الانتظار فعلاً ! »

كتبت حلية هذه الجملة على دفترها ، وابتعدت من هناك .

* * *

عائشة الصغيرة

كانت حلية تكمل متابعتها للنساء الأناضوليات وبطولاتهن في حروب تشنكلة ، في الحقيقة كانوا جميعاً أبطالاً ، كان آبائهم أو أزواجهم أو أولادهم في الجبهة ، وكان من بينهم عدد ليس بقليل من تلقى خبر وفاتهم جميعًا في آنٍ واحد .

وها هي الآن في قرية أخرى ، كانت قرية كمثات وآلاف القرى المألوفة . . . لكن لهذه القرية لها خاصية تميزها عن الباقي ، ولهذا السبب كانت حلية في هذه القرية .

كان مختار القرية قد جمع لجنة العجائز وهو يتكلم :

ـ أيها الأصدقاء تعرفون أني ذهبت في الأمس إلى البلدة ، ومن الجيد أني ذهبت ، فقد أصدر المقر أمرًا لكل مختارات القرى .

وبدأ القرويون من لجنة العجائز ينهمرون بالأسئلة على المختار :

ـ خيرًا ، ما هذا الأمر ؟

ـ ماذا يريدون مجددًا ؟

ـ اتركوني اشرح لكم يا أحبائي . . .

ـ اشرح لنرى . . .

ـ تفضل سلطاننا بأمرٍ .

ـ فلتخبرنا بلا مقدمات يا مختار !

ـ باختصار قال السلطان أنه حتى طلاب مدارس المتوسطة يمكنهم الالتحاق بالعسكرية .

ـ واو . . .

ـ الحالة مزرية إلى هذا الحد إذًا !

ـ آه ماذا نفعل علينا طاعة الأوامر !

ـ لو بقي الأمر عند هذا لكان جيدًا . . .

ـ ماذا بعد يا مختار ؟

ـ يريدون من قريتنا ٢٠ رجلاً لكي نرسلهم إلى الجبهة .

ـ روحنا فداء للوطن لكن كيف سنجد ٢٠ رجلاً في قريتنا هذه ؟ ربما كان يحسبوننا رجالاً فهذا شيء آخر . . .

ـ نحن أيضًا رجالٌ لكنا عمرنا قد مضى ، كل واحد منا قدمه في حفرة . . . يريدون ٢٠ شابًا . . .

ـ فلنحصي من في القرية : أحمد حسين آغلالر ، محمد أخوال

علي ، وحسن الأعرج تشوبان دافوتلار . . .

ـ إنه أعرج . . .

ـ لا مشكلة فلنتظر للأمر على أساس أن يستطيع حمل السلاح أو لا

ـ وأيضا غضنفر آراز باجيلار . . .

ـ يا مختار ، إن غضنفر طفل الأمس . . .

ـ لم تسمع على الأغلب سيذهب الأطفال الذين في المدرسة المتوسطة إلى الحرب أيضًا . . .

ـ يا لما يحصل لي . . .

ـ فليتركونا نذهب نحن إلى الجبهة ، والله بالله لأعرف الموت أكثر منهم جميعًا !

ـ أنا كذلك . . .

ـ أنا أيضًا . . .

ـ نحن بحاجة رجال تقتل لا تموت ، فلتجلسوا أماكنكم أنتم ، فالوطن محتاج إليكم هنا .

ـ على كل لم نكمل الـ ٢٠ شخصًا ، فلنخبر عوائلهم كي يستعدوا حتى الغد .

لقد شهد حلية مشاهد كهذه كثيرة في كل زوايا الأناضول حتى أنها صارت عادية جدًا بالنسبة إليها ، لكن حدثًا حدث في هذه القرية كان غير متوقعٍ ، فقد مات الشباب العشرون الذين كانوا سيذهبون إلى العسكرية فجأة ، لا شيء يمكن فعله ، وعندما تم الدفن في التراب أسرعت شابة تدعى عائشة تكون أخت أحد الموتى إلى باب المختار :

ـ عمي المختار فلتخرج إلى الخارج !

ـ ماذا هناك يا بنتي عائشة ؟

ـ تعرف يا أخي الكبير . . .

ـ أعرف يا بنتي ، عظّم الله أجركم .

ـ سلمت عمي المختار ، كان أخي الكبير سيذهب للعسكر لو لم يمت .

ـ هذا يعني أنّ ليس له نصيب في ذلك يا ابنتي .

ـ أما كان سيذهب من قريتنا ٢٠ شخصًا ؟

ـ اهاا!

ـ الآن هذا الرّقم نزل لـ ١٩

ـ ماذا نفعل يا ابنتي ؟ كلّ أبناء قريتنا بهذه القدر .

ـ لا يا عمّي المختار ، ليسو بهذا القدر .

ـ من يوجد يا بنتي ، من نسينا ؟

ـ من سيكون يا عمّي المختار ، نسيتني أنا ، أنا . . .

ـ لم أفهم .

ـ أقول لكم أنّكم نسيتموني .

ـ هيّا من هنا أنت الأخرى ، هل نرسلك إلى العسكر وأنت فتاة ؟

ـ وماذا في كوني فتاة ؟ هل الأولاد الذين هربوا أرجل مني ؟ والله أنت تعلم جيدًا أني بإمكاني رميهم جميعًا أرضًا .

ـ أنا متأكّد من ذلك

لم تطل هذه المحادثة كثيرًا ، لم يتحمّل العمّ المختار إصرار الفتاة عائشة ، ألبسوا هذه الطّفلة ذات القلب الجسور ملابس الرّجال ، ووضعوا على رأسها قبّعة ، لم يبقى فرق بينها وبين الصبيان .

الموظّف الذي جاء من المدينة ، أخذ عشرين شابًّا ، وبدون أن ينتظر أرسلهم فورًا إلى تشنكلة ، وعندما انتهت عائشة من القتال في تشنكلة عوضًا عن أخيها ، أُرسلت إلى غزة واستشهدت هناك .

اليوم في تراب غزّة بين الشّهداء الأتراك الشّجعان ترقد عائشة صغيرة أيضًا .

كتبت حلية وهي تبعد عن تلك القرية على دفترها :

« البطولة لا تتقيد برجل أو امرأة »

وشعرت أنّها شعرت بالفخر كفتاة شابّة .

* * *

لقد دُفِعَ هَذا الحساب بدمِ أحمد رفقي

وقع طريق حلية هذه المرة على إستنبول ، فرحت كثيرًا عندما رأت المكان الذي كبرت وترعرعت فيه ، هل كانت قد اشتاقت لاسطنبول أم ماذا ؟ قالت لنفسها : اشتقت إليها بالتأكيد ، أن تحب محافظتك يعني أنك تحب وطنك .

كانت في ثانوية وفاء في إسطنبول ، كانت مغامرة أستاذ اللغة الفرنسية أحمد رفقي هي من أحضرتها إلى هنا .

عندما دخل الأستاذ السيد أحمد رفقي لم يقف الطلاب حتى أنهم لم يردّوا السلام أيضًا ، فسأل أحمد رفقي طلابه متعجباً :

ـ ماذا حدث يا شباب؟ لما لم تقفوا ؟ وفوق هذا لم تردوا السلام . . .

. . . . ـ

ـ تكلموا لو سمحتم ، هل بدى مني تصرفٌ غير لائق بحقكم ؟

قام طالب من مقعده الذي كان في الخلف وقال :

ـ بالتأكيد يا أستاذي لم يصدر عنكم شيءٌ تجاهنا ولكن . . .

ـ ولكننا نفكر أنكم مقصرون تجاه الوطن !

ـ هذا اتهام قاس جدًا ، إذا كنتم تشكون في أني شخصٌ أحب الوطن فسوف أحزن كثيرًا .

ـ لا نقصد أن نحزنكم يا أستاذي ولكن كل من في المدرسة والحيّ من رجال قد ذهبوا إلى الجبهة ، وأنتم مازلتم هنا . . .

ـ ولكني مشغول في تدريسكم . . .

ـ ما فائدة ما تعلمونه إن ذهب الوطن !

تجمد السيد أحمد رفقي بعد هذه الجملة .

كان الأطفال محقين من الأرض حتى السماء ، قدم أستاذ الفرنسية استقالته مباشرة ، وشرح الوضع لأمه ، طلب سماحها ، ثم مرّ ببائع الحيّ السيد صلاح الدين عادل وأخبره أن يعطي أمه كل ما تحتاجه وقال إنه سوف يوفي دِينه عند عودته من تشنكلة .

أُرسل أحمد رفقي بعد تعليم قصير عن العسكرية إلى تشنكلة ، كان سيعمل مهمة قائد القوات ، كان العدو يترك منطقة آنفاتلار وأريبورنو ، ولكنهم لم يتراجعوا عن إلحاق الأذى بالعساكر الأتراك حتى في هروبهم ، كانت الألغام التي يقعون بها تقتل من العساكر الأتراك أيضًا ، وكان من بين هؤلاء أيضًا أحمد رفقي ، وصل أستاذ الفرنسية إلى مرتبة الشهادة في يوم ١٩ كانون الأول ١٩١٥ عندما داس على إحدى الألغام .

جاءت مجموعة من العسكر إلى بيت العسكري أحمد رفقي ، ودق الباب أكبرهم سنًا ، وأحست الأم التي فتحت الباب مادة رأسها خارجًا بشيء غريب يحصل .

ـ تفضلوا يا أولادي ، هل تريدون شيئًا ؟

ـ أيتها الخالة هل أنت أم الأستاذ أحمد رفقي ؟

ـ نعم يا ولدي ، هل أحضرتم لي خبرًا عن بني ؟

ـ نعم يا أمي . . .

كانت المرأة العجوز تستطيع تخيل مجرى الحديث إلى أين سيصل ، ولكنها استجمعت كل قواها وقالت :

ـ كيف هو بني العزيز ؟

ـ إنه في أحسن حالٍ يا أمي ، سيكون لك شفيعًا في الجنة إن شاء الله !

كانت تعني هذه الجملة أن الكلام قد انتهى ، الآن ستتحدث العيون والقلوب ، ترك العساكر القادمون أغراض أحمد رفقي وذهبوا .

رأت الأم المسكينة صرة نقود ملفوفة بمنديل بين أغراض أحمد رفقي ، وعند إمساكها بالنقود أسرعت إلى البائع ، لم يبقى أحد لم يسمع بخبر استشهاد أحمد رفقي ، قالت المرأة العجوز لبائع الحيّ :

ـ تعلم أني كنت في ٧ أشهر الماضية آخذ منك أغراضًا

بالتقسيط ، فلأوفي ديننا ، كي لا يبقى أحمد رفقي مديون .

قال السيد صلاح الدين عادل :

- يا أمي العزيزة أنت لا تعرفين القراءة والكتابة ، نادي بنت جيراننا غولشان للتكتب لنا الحساب .

أسرعت المرأة العجوز وأحضرت غولشان ، وضع البائع السيد صلاح الدين عادل دفتر الحسابات قبالة غولشان وابتعد قليلاً ، وفحصت غولشان الحساب جيدًا ، وتوقفت عندما قرأت الجملة التي في آخر سطر ، بدأ الدمع يتسرب من عيني الفتاة الشابة وهي حائرة فيما تقول .

كان هناك جملة مكتوبة باللون الأحمر في حساب السيد أحمد رفقي تقول :

« هذا الدين دُفع بدم أحمد رفقي » .

لا شيء يُقال ، هذا الجملة كافية لقول كل شيء ، كان كيف لتربة أن تكون وطنًا مخبئًا في هذه الجملة ، لم تكتب حلية شيئًا جديدًا في دفترها بعد هذا الحدث

« هذا الدين دُفع بدم أحمد رفقي » .

كانت هذه الجملة كافية وافية .

* * *

سيُدفع الثمن في تشنكلة

كانت حلية في داخل تأثير الأحداث ، كانوا قصص أبطالاً حقيقين ، كانت متأكدة أنها ستفعل جهدها من أجل الوطن عند الحاجة ، ولكن هل كانت تستطيع فعل ما فعله الضابط الإستنبولي مظفر ؟ ليست متأكدة من هذا ، لأن نجاح مظفر يتطلب موهبة قليلاً ، ما الذي فعله مظفر ؟ كانت حلية تعلم جيدًا ما فعله مظفر لأنها تابعته من بداية الأمر حتى آخره :

كانت الحرب قد انتهت في تشنكلة عندما أُخِذ مظفر إلى العسكرية ، كانت المجموعات الموجودة هناك سترسل إلى جبهات القوقاز والعراق وفلسطين ، ولأجل هذا كانوا يُعدون التجهيزات ، كان مظفر مسؤولاً في مجموعة الكتيبة داخل المقر ، عين القواد مظفرًا لهذه المهمة ، أعطوا مظفرًا مكتوبًا كي يتمكن من استلام النقود اللازمة من الوحدات المسؤولة .

في تلك السنوات كانت الشاحنات وإطاراتها نادرة جدًا في إستنبول وتتواجد في السوق السوداء ، وبحث مظفر فوجد أن الإطارات التي يريدها موجودة في القرية السوداء عند تاجر يهودي .

تكلم مع التاجر اليهودي ، كانت الأسعار عالية جدًا لكن ليس باليد حيلة ، وبعد أن ساومه اتفق مع اليهودي ، في الآخر ذهب إلى الوحدة التي سيستلم فيها النقود ، وصل إلى مسؤول الدفع ، وأراه المكتوب الذي في يده ، قرأ المفوض المكتوب ، وسأل الضابط الذي يقف قبالته في وضعية « استعد » وقال :

ـ ماذا ستفعلون بهذه النقود ؟

قال مظفر :

ـ سأشتري إطارًا للشاحنة يا سيدي

توقف مسؤول الدفع للحظة ، وبعد ذلك قال بكل جدية :

ـ انظر إلي يا ولدي ، إنني لا أجد نقودًا لأشتري فيها حذاءً للعساكر أو غطاء لأظهرهم ، وأنت تتكلم عن إطار شاحنة ! ألا تخبرني أيهم أكثر أهمية ؟

لم يجد مظفرًا كلامًا يقوله ، وكان المسؤل محقًا ، وهو كذلك .

لقد تعهد مهمة ، وكان عليه تحقيقها مهما كان العذر الذي سيقدمه ، ولكن كيف ؟

ترك المسؤول بعد أن سلم عليه ، كان يمشي في شوارع إستنبول ويفكر ، وفجأة خطرت له فكرة لامعة ، ابتسم ، لم يكن ليفعل هذا في وقت السلام ، ولم يرى أن فعل هذا شيء يُعارض بما أنهم في حرب .

وذهب مباشرة نحو التاجر اليهودي ، وقال بعد أن سلّم عليه :

ـ جهزوا الإطارات ، سآتي لأخذها غدًا وسأعطيكم النقود في الغد ، ولكن سأعطيكم نقود نقدية لأنهم لا يعطون نقود ذهبية .

وردّ عليه التاجر اليهودي بقول « حسنًا » .

غادر مظفر ذلك المكان ، ولكي يفعل ما يفكر به كان يحتاج لبعض الأدوات ، وبعد أن اشتراها ذهب إلى غرفته في الفندق ، وعمل حتى الصباح في صنع ما يريد .

وفي الصباح الباكر ذهب مظفر إلى مركز القيادة العامة وأخذ عربة أحصنة وبعض العساكر ، وذهبوا جميعًا إلى التاجر اليهودي ، كان المكان ينير قليلاً قليلا ، وحُملت الإطارات على العربة ، أخرج مظفر من محفظته مئة ليرة ، تحركت العربة بأحصنتها الأربعة نحو سيركاجي ، وحُملت الإطارات من هناك على السُفن ، وبعد قليل تحركت السفينة نحو تشنكلة .

ذهب اليهودي بعد ثلاث أيام لصرف النقود في بنك الدولة ، لم يصرفوها له ، لأن النقود كانت مزورة !

كان مظفر قد حصل على الأدوات وعمل حتى الصباح في تجهيز النقود ، كان قد جهزها بشكل يَصعب التفريق بينها وبين الأصل ، وهكذا لم يعرف التاجر اليهودي أنها نقود غير حقيقية .

كان في النقود الغير حقيقية تفصيل يُلفت النظر ، كان بين الكتابات الحقيقية التي تكون فوق النقود مكتوب : « سيدفع الثمن في الذهب » ، وبدل هذه الجملة قام مظفر بتغييرها :

« سيدفع الثمن في تشنكلة بالذهب »

وكان الذهب الذي ذكره مظفر هو دم الشهداء الذي سُكب في تشنكلة .

لم يجعل اليهودي مما حدث قضية ، لكن الحدث انتشر في كل إستنبول ، ووصل إلى أذن الأمير حليم أفندي ، وأرسل الأمير بسرعة رجلاً ليجد التاجر اليهودي ، ودفع بدل النقود الغير الحقيقية ذهبًا ، ووضع النقود في علبة مجوهرات جميلة جدًا ثم تبرع بها إلى متحف مدرسة الشرطة التي في إستنبول .

لم تكن حلية متأكدة من أن تنجح بشيء كهذا ، لأنها لم تمتلك تلك الموهبة ، ولكنها قررت أن تذهب بأقرب وقت إلى متحف مدرسة الشرطة في إستنبول وترى تلك النقود المشهورة ، ثم كتبت في دفتر ملاحظاتها هذه الجملة :

« إن الناس الذين غيروا من مسار الحرب هم أناس موهوبون » .

* * *

أطفال تشنكلة الشهداء

كانت رؤوس الشهداء محناةً ،

كانت أعمارهم توحي بأنهم أطفال ،

كان يدور في رؤوسهم طيور الجنة ،

كانوا أشخاص محشر تشنكلة ،

أماكنهم جاهزة بجانب الرسول . . .

يوسف دورسن

تقاطع طريق حلية هذه المرة عند أطفال تشنكلة ، الأطفال . . . إنهم الأبطال الحقيقون الذين هبّوا إلى الجبهة قبل أن يستمتعوا بطفولتهم ، كانت حكاية كل واحد منهم مختلفة عن الآخر ، كان للقصص كلها جانب متشابه : الشهادة فداء الوطن !

بدأت حلية أوّلا بتتبع طريق طالب ثانوية كالتاسراي جلال إبراهيم :

سنة ١٩١٥ حروب تشنكلة كانت تستمر بكل سرعتها ، العدو لم يحرز أي انتصار ، وفي هذه الحالة يقوم بجميع قوته وينتقل إلى

الهجوم ، أمّا العثمانيون محتاجون إلى قوات جديدة ، امتلأت كل زوايا إسطنبول بلافتات تدعو الشباب للتطوع بالقتال ، وجلال إبراهيم يرى هذه اللافتات ، وفي تلك اللحظة يعطي قراره ، سيكون عسكريًا متطوعًا ، سيركض لنجدة الوطن ، كان حماسه يكبر في داخله لدرجة أنه يريد فعل أي شيء ، وفي أول مساء يذهب إلى الشعبة التي سيكتب فيها اسمه كعسكري متطوع ، وينتظر هنا حتى الصباح دون أن تغمض عينه للحظة ، رأى الموظفون القادمون صباحًا جلال الذي كان ينتظر قدومهم ، وبدأ العساكر المتطوعون يصطفون أيضًا .

وصل جلال إلى هدفه ، لقد سُجل « المتطوع الأول » .

كانت حلية مع طلاب ثانوية كالاتاسراي مجددًا ، كان مئات من الطلاب سيذهبون إلى تشنكلة ، سيقبل طلبهم ، سيذهبون في ريعان شبابهم إلى العسكر ، يتدربون قليلا ثم سيذهبون إلى تشنكلة ، كانت هناك حرب حقيقية في تشنكلة ، لم تكن لعبة سهلة ، كانت تحرق من يلمس الأرض وتوقع أرواحًا بريئة تحت التراب المظلم ، في ذلك الوقت فهم الطلاب معنى الخوف ، وعندما رأى حالهم هذا نقيب قال لهؤلاء العساكر الصغار :

ـ من أنتم ؟

لم يكن الجواب الذي حصل عليه مفاجئًا أبدًا .

ـ نحن طلاب ثانوية كالاتاسراي .

ـ وماذا تفعلون هنا وأنتم في عمر الأطفال ؟

ـ جئنا لنموت من أجل الوطن

كان الأطفال قد جاءوا ليموتوا من أجل الوطن ولكنهم كانوا يخافون ، كان الخوف الذي فيهم يمكن أن يسيء من معنويات العساكر الأخر ، من الممكن أن تحدث مصيبة لو أرادوا الهروب من المعركة .

قال النقيب للأطفال ليريحهم :

ـ هل منكم من يعلم نشيدًا ؟

سمع صوت أحد الطلاب يهتف :

« أمي رعتني ، وأرسلتني إلى هنا .

باعت كل ما لديها ، ووكلت أمرها لله .

قالت لا تجلس بلا عمل ، اذهب لخدمة الوطن .

لا يحل حليبي لك إذا لم تهاجم العدوّ .

والأطفال الأخر قاموا بالمشاركة بالأنشودة ، جائهم جميعًا شجاعة ولم يبقى أي أثر لحالة الخوف التي كانت فيهم .

وبعد قليل سمع صوت النقيب :

ـ هجوم !

ومن دون أن يستطيع الأطفال إيجاد فرصة ، لفعل أي هجوم حقيقي ، قاموا بأخذ مواضعهم بين شهداء نصر تشنكلة

كانت هناك في ثانوية إسطنبول للصبية عملية تطبيقية مختلفة عن هذه .

وبدأت حلية بتتبع ما قد حدث وانتهى هنا بعينيها بدقة :

كان الجيش العثماني في وقت يحتاج إلى تجديد قوته ، كان رائد يجول الصفوف مع مساعد المدير ، وبعد أن سلما على المدرس الذي في الصف الذي دخلا إليه قال الرائد :

ـ أستاذي ، إن الوطن بحاجة إلى أبنائه ليخدموه .

ثم عاد بنظره إلى الصف ، وقال للطوال الذين في نهاية الصف : « أنت تعال ! وأنت تعال ! » وناداهم إلى جانبهم ، نفذ هؤلاء الشبان ما طلب منهم بسرور ، وأما القصار فكانوا يرفعون أنفسهم بأرجلهم ليبدوا طوال ، فطَيَّبَ الرائد قلوبهم قائلاً :

ـ هذا يكفي إلى الآن ، نأخذكم أنتم أيضًا في وقت لاحق .

أرسل الأطفال بعد أن تلقوا فترة تعليمة قصيرة ، ومن المحزن أن أحدًا من هؤلاء العساكر الصغار لم يعد .

* * *

كانت أعمار طلاب كلية طب إستنبول في الصف الأول مناسبة أكثر من غيرهم ، كان عددهم ١٠٠ تقريبًا ، كانت السنة التي ذهبوا فيها كمتطوعين إلى الحرب هي سنة ١٩١٥ ، السنة التي تليها لوّن فيها جدار كلية الطب إستنبول بالأسود ، وعندما جاء عام ١٩٢١ لم تُخرّج كلية طب إستنبول أحدًا ، لأن الأطباء الذين كانوا مرشحين للتخرج كانوا يرقدون في أرض تشنكلة .

وكي لا تنسى أسمائهم نُصب لهم نصب تذكاري .

* * *

كانت تعتقد حلية بأنها ومع كل حكايةِ بطلٍ تزدادُ نضوجًا ، وبهذه الأفكار كتبت الآتي :

« ذهب شهداء تشنكلة الأطفال للعب في حدائق الجنة » .

* * *

الرسالة الأخيرة لشهيد تشنكلة

كانت حلية في منتصف الحرب ، ولكنها كانت تشعر بالفضول تجاه أرواح المقاتلين أكثر من الحرب بحَدِّ ذاتها .

لفت نظرها العساكر الذين يكتبون رسائل وهي تتجول في مناطق الاستراحة ، ووجدت ما كانت تبحث عنه ، واستطاعت رسائل العساكر شرح كل الأوضاع التي كانوا فيها .

بدأت تقرأ الرسائل التي كأنها المكتوبة بالظلال ، أول مكتوب رأته كان من صبي يدعى حسن كتب إلى أمه ، كان حسن يقول إلى أمه :

والدتي العزيزة ، الأم المحظوظة التي ولدت أربع عساكر تفخر بهم ، أخذت مكتوبك المليء بالنصائح عندما كنت مستلقيًا تحت شجرة الإجاص أستريح ، أعطى المكتوبُ سعادةً روحيةً لي فوق تلك السعادة التي بين جمال الطبيعة ، قرأته ، وأنا أقرأه تعلمت دروسًا كثيرة ، فقرأته مرة أخرى ، فتحت عيني ، ونظرت إلى الأفق ، كانت أوراق الشجر التي انحنت ولم تتحمل الرياح

كأنها تسلم على المكتوب الذي جاء من أمي .

أملت رأسي إلى اليمين قليلاً ، رأيت أشجار الصنوبر وهي تتمايل بجمال خاص بها على طرف واد جميل وهي تبشرني ، أدرت نظري إلى اليسار ، كان النهر الذي يتدفق بروعة كأنه يبتسم لي للمكتوب الذي جاءني ، يلعب ، ويتدفق .

رفعت رأسي ، نظرت لأوراق الشجرة التي كنت أستريح تحتها ، كانت كلها تشير إلى سعادتي ، وفي هذه اللحظة ، جاء مزود الخدمة وقال لي :

ـ سيدي هذا الشاي لكم ، تفضلوا اشربوا .

ـ حسنًا .

أخذته ورأيته ، كان شايًا بالحليب ، فقلت :

ـ من أين أحضرت هذا الحليب يا مصطفى ؟

ـ هل رأيت هذا طرف النهر المتدفق الذي هناك يا سيدي ؟

ـ نعم ، ما أجمله !

ـ أخذته من راعيه بـ ١٠ ليرات .

أمي الغالية ، لقد أخذت بعشرة ليرات مئة درهم حليب ، ولم يضف إليه ماء ، أخذ من الماعز الآن ، أخذته وشربته .

ولكن لا تحزني يا أمي ، أنا سأحضرك إلى هنا ، نعم سأحضرك ، وأريك هذا المنظر الرائع .

وعلى طرف أخضر من قرية ذلك المرج ، كان عساكري مصطفين يغسلون الملابس المتسخة بإتقان ، وكان بينهم من يقرأ الأذان بصوت جميل جدًا .

يا إلهي كم كان صوته جميلاً في هذا السهل ، حتى البلبل سكت ، والمحاصيل توقفت عن الحركة ، وحتى النهر لا يخرج صوتًا ، كل شيء ، الأحياء والجماد ، كل المخلوقات كانت تسمع صوته المقدس ، انتهى الأذان ، فذهبت إلى ذاك النهر وتوضأت أنا أيضًا ، وصلينا جماعة .

نسيت كل هموم الدنيا ، رفعت يدي وبدأت أدعوا :

ـ يا ربي العظيم ، يا من أسمعتنا صوت العصافير ، وصوت ثغاء الأغنام التي تتجول ، وهذه النباتات والحشائش الساجدة ، يا الله خالق هذه الجبال العظيمة ! أنت أعطيتنا كل هؤلاء ، اتركهم معنا مجددًا .

يا ربي العظيم ! إن كل هؤلاء همّ العساكر الأبطال أن يعرفوا الإنكليز والفرنسيين ، أنت يا إلهي لا ترد هذه الأمنية الشريفة ، فلتجعل يا إلهي هؤلاء العساكر الذين يرجفون في حضرتك

ويدعونك بكل شغف من حرابهم المسننة ، إنك قهرت أعدائهم ، فلتهلكهم أجمعين !

ما عاد هناك من هو أسعد مني .

ابنك

حسن أدهم

(١٧ نيسان ١٩١٥)

* * *

رسالة القائد الشهيد الأخيرة

« أبي وأمي الحبيبين ،

عند أول دخول لي إلى الحرب الفظيعة في أريبورنو اخترقت في قسم الأيمن ومن بنطالي رصاصة ، نجوت الحمد لله ، ولكني لم أكن متأكد إن كنت سأستطيع النجاة بعد ذلك ، ولهذا فأنا أكتب الآن لكم كي تبقى كتاباتي هذه ذكرى مني لكم .

الحمد لله عز وجل الذي رفعني إلى هذه المرتبة ، وأنتم يا أمي وأبي ربيتماني على خدمة الوطن أحسن تربية ، أشكر ربي عز وجل وأشكركم .

أبي وأمي الحبيبين ،

أترك نور عيني زوجتي وابني الصغير نزيه في حماية الله عز وجلّ ثم في حمايتكم ، أرجو منكم أن تفعلوا ما يحتاجونه .

أرجو منكم مع زوجتي أن تجتهدوا في تربية وتعليم ابني ، معروف أنكم لستم بأغنياء ، لا أطلب منكم أكثر من الإمكانيات فيكون طلبي لا معنى له ، أرجو أن تعطوا الرسالة التي كتبتها

لزوجتي ليدها ، ولكنها ستحزن كثيرًا ، أعطوها بحيث ألا تحزن ، ستبكي وتحزن بالتأكيد فلتواسوها .

أبي وأمي الحبيبين ،

ربما كنت قد قصرت في حقكم كثيرًا بغير علم ، سامحوني ، واعفوا عني .

أختي لطفية العزيزة :

تعلمون أني كنت أحبكم كثيرًا ، كنت أريد دومًا أن أبذل كل طاقتي في فعل أي شيء لأجلكم ، ربما قصرت في حقكم أيضًا ، سامحيني ، فإن القضاء الإلهي يحكم هكذا ، اعفي عني ، ساعدي أنت أيضًا كنتك السيدة منور وابني نازيه ، واتركم أنتم أيضًا في رعاية الله وحفظه .

يا أيها الأقارب والأصدقاء ،

أودعكم جميعًا ، سامحوني ، من جهتي فقد سامحتكم ، وداعًا وداعًا . . . أترككم في أمانة الله عز وجلّ .

أودعكم إلى الأبد يا أبي وأمي الحبيبين . . .

ابنكم محمد توفيق »

وقعت بعض قطرات دمع على الظرف عندما كانت الرسالة توضع فيه ، ولكن من أين أتت فهي لم تبكي ، نظرت إلى السماء فلم

تجدها تمطر ، فظنت أنها بكت من دون أن تشعر ، وضعت الرسالة داخل الظرف ، وسلمتها لساعي البريد .

وذهبت الرسالة مع دموع حلية إلى حيث ستذهب .

« هناك من يسكب دمه لأجل هذا الوطن ، وهناك من يسكب دموعه » .

وبينما كانت حلية تكتب هذه الجملة لم تكن دموعها قد انتهت .

* * *

الأكفان النظيفة

كان آتاكان يتابع التصادمات الحادة التي كانت تحدث في كيترة وكريفيزدا زينذارا ، هذه المرة وقع طريقه بجانب كتيبة ٥٧ . وليس بجانب بطل ، كانت هذه الكتيبة بأفرادها جميعًا قد أرت كل الأعداء والأصدقاء كيف يموت الإنسان فداء للوطن .

رأى آتاكان كل أفراد الكتيبة وهم يغسلون ملابسهم ، واسترق السمع بينما هو يمر من جانبهم :

ـ الهمة يا أصدقاء ، يجب على غسيلنا أن يكون نظيفًا جدًا .

ـ يجب أن نهاجم العدو بملابس نظيفة .

ـ فبكل الأحوال سنستشهد .

ـ فلنخرج إلى ربنا بلباس نظيف طاهر .

ـ وأيضًا لا يبقى منا من لم يتوضأ يا أصدقاء

ـ يتسابق منا الذي يستشهدون المتوضؤن .

نظفت كل ملابس الكتيبة وارتدوها وتوضوؤا ، أصبح بإمكانهم أن يهجموا هجومهم الأخير وأن يستشهدوا مع هجومهم الأخير وأن

يصعدوا إلى الله أصفياء ، وهذا ما حدث ، وفي اليوم التالي لم يبق من كتيبة ٥٧ . إلا علمهم الدامي .

بعد مرور فترة زمنية أُرِيدَ أن يعطى للأبطال ميداليات ، وجُهرت مراسم ذلك ، وعندما نُودي على كتيبة ٥٧ . عمّ الصمت ، لم يبقى عسكري واحد حتى يستلم الميدالية ، وجاء جندي من كتيبة أخرى وأمسك بعلم كتيبة ٥٧ . الدامي ، وعلقت الميدالية على طرف العلم .

وسُجلت كتيبة ٥٧ . في التاريخ كـ (كتيبة الشهداء) ، تركت هذه الكتيبة أثرًا كبيرًا في روح آتاكان الهائجة .

بللت الدموع الجملة بعد أن كتبها على دفتر ملاحظاته :

« إن النصر من حق الذاهبين إلى الموت بكل طهارة » .

* * *

احترام العساكر الأتراك
بعد الحرب بـ ٢٥ سنة

انتهت الحرب بعد أن تركت خلفها آلام مريرة ، كانت السنوات تمر بسرعة وكانت جروح الحرب تداوى .

وأصبحت هناك علاقات جيدة بين الدول التي كانت تحاول ذبح بعضها البعض في حرب تشنكلة ، حتى أنه أعلن عن يوم « يوم الأنزكلار » ، كان قسم من الأنزاك يأتون في هذا التاريخ إلى تركيا ويشاركون بالمراسم .

أرادت حلية بتواجدها في المراسم أن ترى ما يحصل ، ولهذا السبب أخذت مكانها في مراسم غاليبولي .

جاء الوالي العام جون كاسي من أستراليا في يوم الأنزاك لزيارة تركيا في عام ١٩٤٠ ، كان من خصائص الوالي أيضًا أنه كان في حرب تشنكلة ملازم أول في إحدى كتائب الإنكليز ضد العساكر الأتراك .

شرح الوالي العام أثناء المراسم عن حدث لشهيد ،

وأخذت حلية تنصت للوالي بكل اهتمام :

ـ كان في جونكباير حروب المدرعات المخيفة قائمة ، وصارت المسافة بين المدرعات (١٠) متر ، بدأ بين الطرفين حرب بالحربة السفاحة ، حتى تعب الطرفين من رمي الحراب ، وأعلن القواد عن وقت استراحة ، وانسحب الجميع إلى مدرعاتهم ، بقي الأموات في الوسط ، والجرحى من كان يستطع المشي أتكأ على حربته ، وبقي في المنتصف نقيب إنكليزي ، كان جرحه عميقًا وإحدى رجليه على وشك الانقطاع ، كان ينحب ويصرخ « أنقذوني ! » ، ولكن لم يستطع أحد منا أن يخرج وينقذه ، وفي هذه الأثناء حدث حدثٌ لا يتحمله عقل ، لوّح بقطعة بيضاء من أدرع الأتراك ، وبعدها خرج عسكري تركي مجروح من خلف الأدرع ، وكان بدون سلاح ، وكنّا ننظر إليه جميعنا دون أن نتنفس .

جاء العسكر بخطوات ثقيلة ، واحتضن النقيب الإنكليزي المصاب ، رمى ذراعه فوق كتفه وأخذ يمشي نحو مدرعاتنا ، ترك المصاب بكل تهذيب ثم عاد ماشيًا نحو مدرعته ، لم نستطع أن نشكره حتى ، كنا مذهولين ، وتحدثنا عن هذه الشجاعة لأيام .

وصار الملازم الأول للإنكليز في تشنكلة هو الوالي العالم لأستراليا ، كان من المهم بكلامه عن هذه القصة أن يبين شخصية العساكر الأتراك العظيمة .

وصنع ذكرى تحكي عن القصة التي حكاها الوالي العام لجندي تركي يساعد نقيبًا إنكليزيًا .

« يفوز بالحرب من لا ينسى الإنسانية » .

حاولت حلية أن تعبر عن مشاعرها بكتابتها لهذه الجملة في دفتر ملاحظاتها .

* * *

عسكري أنزاكي في تركيا
بعد ٣٠ عامًا من الحرب

الأرزرومي يوسف ، شاب مجنون .

شجاع عملاق ، وقوي للغاية .

أثر أزناكي أُمسك من رقبته

وأُحضر إلى المقر

قال : قبطاني ، ملخص الكلام

حادثة حدثت في عام ١٩٤٥ ، جذبت انتباه حلية .

كانت قد مضت على حروب تشنكلة (٣٠) عامًا ، في ذلك التاريخ كان قد جاء إلى تركيا مع زوجته عسكري أزناكي أسترالي كان قد حارب مع العساكر في جالبول الأتراك ، ذهبت هذه العائلة إلى مركز رئاسة العمال العامة ، كان قد أخذ إذنًا ليأتي إلى جالبول لسياحتها ، أعطى رئيس العمال هذا العسكري الذي أراد إحياء ذكرياته الإذن .

وفوق هذا عين قبطانًا يدعى تيكين باشا ليساعدهم ، كان تيكين باشا ابن قائد الفريق (٥٧) المشهور السيد ياراباي حسين أوني ، ومن ناحية أخرى كان هو سيرى أيضًا الأماكن التي حارب فيها أبوه ، وكان سيقوى حبه للوطن أكثر .

لم يكتف تيكين باشا بتجويل العسكري الأزناكي وزوجته في جولبول فقط ، بل دعاه إلى بيته الذي في أنقرة أيضًا ، الزوجين الأستراليين بعد أن بقيا في تشنكلة ثلاثة أيام أخرى ، ذهبوا للضيافة في بيت تكين باشا في أنقرة .

كانت حلية تتبع ما حدث وانتهى في بيت تكين باشا ، كان أصحاب المنزل قد دخلوا إلى المطبخ لفترة ، فبقي الضيوف في غرفة الجلوس لوحدهم ، بدأ العسكري الأزناكي يتحدث بحماس وهو ينظر إلى الصورة المعلقة بدقة :

ـ هذا كان قائدًا ، نعم نعم كان قائدًا .

تفاجأت الزوجة وقالت :

ـ عن ماذا تتحدث زوجي ؟

ـ هذا كان قائدًا ، القائد الذي أسرنا !

ـ لم أفهم .

ـ لا يوجد ما لا يُفهم ، هذا القائد قبل (٣٠) عامًا أسرنا .

جاء أصحاب المنزل على حديث الزوج وزوجته المتحمس إلى غرفة الجلوس بفضول ، وهذه المرة قال العسكري الأزناكي ذات الشيء إلى تكين باشا :

ـ هذا القائد المعلق في الصورة على الجدار ، كان قد أسرنا في حرب تشنكلة !

هذه المرة كان دور تكين باشا وزوجته بالاندهاش ، الصورة التي يشار إليها ، كانت عائدة إلى والده ، ذهب تكين باشا إلى غرفة أخرى بارتباك وعاد ومعه صندوق ، في هذا الصندوق كان هناك أشياء عائدة إلى عسكري كان قد أسره والده ، فتح الصندوق ، وأفرغ ما فيها على الطاولة ، كان هناك غلاية ، وإنجيل مغلق ، منظار وسلاح . . .

كان العسكري الأزناكي كلما خرجت الأشياء أكثر يصفق ويفرح كالأطفال ويقول :

ـ هذه أغراضي .

أملىء تكين باشا الصندوق بالأغراض وأعاد الصندوق إلى صاحبه الأصلي ، ولم يستطع العسكري الأسترالي أن يعبر عن فرحه .

وفي هذه السعادة بدأ يشرح لهم ما حدث معه عندما كان أسيرًا :

ـ لقد أسرنا أنا وبعض أصدقائي الأتراك ، العسكري التركي الذي أسرني ، أولاً جاء إلي بشراسة ، وثم لسبب لم أعرفه إلى الآن لم يقتلني ، بل قام حتى بإعطائي ماءً ، وفعل ذات الشيء مع الأسير التركي صديقي ، وأخذونا مباشرة إلى خيمة والدك ، وخفنا لدرجة أننا لم نستطع التحكم بأرجلنا المرتعشة ، لقد تعامل معنا بشكل جيد جدًا ، ضيفنا طعامًا وشرابًا ، فقط أخذ منا أغراضنا ، وهذا كان شيئًا طبيعيًا جدًا في الحرب ، ومع كل هذا كنا أنا وصديقي نرتعش بشدة ، لم يتحمل تكين باشا فسأله :

ـ لماذا ؟

كان جواب الضيف تقشعر له الأبدان :

ـ أنا وصديقي الأخر أحياء إلى الآن ونحن مدينون بهذا إلى والدك ، لم نستطع حتى أن نظهر له السعادة التي كانت فينا من خجلنا ، فلقد خاطبنا قائد الجيش قبل أن نخرج للساحة قائلاً :

ـ احذروا من أن تقعوا أسرى في يدي الأتراك ، قاتلوا حتى الموت ، لأن الأتراك آكلو لحوم البشر ، سيأكلونكم .

ولهذا عندما وقعنا أسرى في ذلك اليوم بدأنا نفكر متى سنكون في معدة الأتراك ، وهذا كان سبب ارتعاشنا طوال الوقت ، مع أن الأتراك كانوا رجالاً نبلاء جدًا ، لم يعاملوا أسراهم معاملة سيئة

أبدًا ، بل عكس ذلك ، كانوا يعاملونهم كالضيوف تمامًا .

هذا الحدث الذي شرحه العسكري الأزناكي بعد (٣٠) عامًا ، كان حدثًا مهمًا يظهر أهمية الملّة التركية الحقيقة .

وقبل أن تغادر حلية من هناك ، كتبت هذه الجملة على دفترها :

« الذين يعاملون أسراهم كالبشر ، لقد استحقوا أن يكونوا بشرًا »

* * *

بعد الحرب بـ٤٢ عام

الأزناكي عمر

كانت حلية تتابع تفحص الآثار التي خلفتها الحرب بعد سنوات ، هذه المرة كانت في أمريكا .

كان الطبيب الذي يدعى عمر موسلوغلو يتعلم في تخصصه داخل مشفى في نيويورك ، كان في هذا الطبيب أشياء لفتت نظر حلية .

كان الطبيب موسوغلو يهتم بمريضٍ بعمر ال٧٥ تقريبًا ، قال للمريض :

ـ سوف أعطيكم دمًا ، هلّا فتحتم ذراعكم من فضلكم .

لفتت نظر الطبيب ذراع المريض ، كان في ذراع المريض هناك وشم علم تركيا .

لم يحتمل الطبيب ألا يسأل مريض السرطان العجوز :

ـ هل أنتم أتراك ؟

رفع المريض حاجبيه بمعنى « لا » ، ولم يشبع فضول الطبيب :

ـ ما هذا العلم التركي الذي على ذراعكم ؟

لم يكن باستطاعة المريض الكلام فلوح بيده قاصدًا « لا يهم » ثم قال :

ـ ليس بالأمر المهم .

هنا قال الطبيب :

ـ بالنسبة لي هذا العلم مهم جدًا ، لأنني تركيّ .

عندها فتح الرجل العجوز أعينه وسأل في تذمر :

ـ هل أنتم أتراك ؟

ـ نعم يا سيد أنا تركيّ

اعتدل الرجل بجهد ، أمسك يد الطبيب ثم بدأ يتكلم :

ـ كان عام ١٩١٥ ، أنت لا يمكنك تذكر تلك السنوات ، كان يجمع العساكر من الدول المسيحية لقتال في تشنكلة ، قال لنا الإنكليز : « سيحرق الحلاقين الأتراك عالم المسيحيين ، كان العالم بأجمعه قد اجتمع عليهم ، سوف نكون معًا ونُعَرِّفُ الأتراك الهمجيين حدهم » ، صدقت كما صدق الكثير من أصدقائي هذا الكلام ، وانضممت إلى الراغبين بالحرب .

كانت تستمع حلية إلى ما يقول هذا العجوز دون أن تتنفس حتى :

ـ شحن الإنكليز كل العساكر الذين جمعوهم ضد الأتراك إلى تشنكلة ، أولاً نقلونا عبر السفن إلى مصر ، وهناك تعلمنا عدة أشهر تعاليم الحرب ، ثم انطلقنا إلى تشنكلة .

هناك كنت قد فهمت كم هي الحرب ، شيء مرعب ، كانت أصوات القنابل والبنادق تتداخل ، ومن كلا الطرفين كان هناك آلاف من القتلى ، كان عددنا وأسلحتنا تفوق ما عند الأتراك عددًا ، ورغم هذا كان العساكر الأتراك يجتهدون أكثر ويقاتلون بشجاعة أكبر ، كان بطولة الأتراك تكبر فينا في الحقيقة .

نجحنا في صعود عدة سواحل ، ولكن في كل مرة كان العساكر الأتراك يقذفوا بنا بعيدًا .

وقد أغمي عليَّ في إحدى الاعتداءات بسبب سهم جاء على رأسي ، وعندما فتحت عيناي وجدتُ نفسي بين أناس غرباء ، وانتظرت ما سيفعله بنا الأتراك الهمجيين .

كان هناك شيء غريب ، فلم يكن يتعامل الأتراك كهمجيين بتاتًا ، نظرت فإذا بهم لفّوا جراحي ، وفي لحظة بدوت وكأني نادم ، في ذلك الوقت ضيفوني من طعام حقائبهم ، وكنت أعلم أن طعامهم قليل ، ورغم وضعهم هذا لم يأكلوا هم وجعلوني آكل ، زاد مفاجأتي ، وبدأت أفكر بهذه المشاعر : « كان بإمكان الأتراك قتلي

مباشرة في وضعي هذا ، ولكنهم عاملونا كضيوف ، وأسفاه علي ! كيف أتيت من آخر الدنيا لأحارب أمة أصيلة كهذه ، وكم هي أمة الإنكليز أمة كاذبة ! » .

وأخيرًا أطلقوا سراحنا ، عدت إلى وطني ، كان في داخلي شعور الامتنان اتجاه الأتراك ، بدأ يفكر : ما الذي يمكنني فعله لأجلهم ؟ عندها وشمت هذا الوشم .

كان العجوز يتابع كلامه :

ـ انظروا إلى سخرية القدر كنت في ذلك الزمان على وشك الموت وجاء الأتراك ولفّوا جراحي ، وها هو الآن طبيب تركيّ يعمل على معالجتي ! وفي قدومي من أستراليا إلى أمريكا للعلاج لم يخطر على بالي أبدًا أن أقابل كهذا ، يجب أن يكون هذا ما يسمونه بالقدر .

تأثرت حلية بالمشهد الذي كان يحدث ، وعندما قررت مغادرة المكان عاد العجوز يتكلم :

ـ هلّا أخبرتني باسمك أيّها العجوز ؟

ـ عمر .

ـ لماذا سموك بهذا الاسم ؟

ـ أبي أعطاني اسم الخليفة الثاني للمسلمين .

ـ هل اسمك اسم إسلامي ؟

ـ نعم .

كان العجوز قد تأثر لدرجة أنه سيبكي إن لمسه أحد ، وتابع الكلام بكل قوة :

ـ هلّا ساعدتني يا طبيب أود الجلوس .

وساعده الطبيب لكي يجلس ، وكان يبدو أن العجوز على وشك الكلام :

ـ اسمي حتى الآن كان مستر جوسر ميللار ومن الآن فصاعدًا فليكن عمر الأزناكي !

ـ مبارك اسمكم الجديد يا سيد .

ـ لدي طلب آخر منكم .

ـ تفضل يا سيد .

ـ هل من الصعب جدًا أن تكون مسلمًا ؟

ـ لا يا سيد على الإطلاق بالعكس أنه في منتهى السهولة .

ـ هل يمكنك أن تجعلني مسلمًا ؟

تأثر الطبيب عمر لهذا الطلب كثيرًا ، ساعد المريض على النطق بالشهادة ، وأصبح مقابله مسلم ، ويدعى الأزناكي عمر .

ـ أعلم أن المسلمين يُسَبِّحون ، هل يمكنك أن تجد لي سُبحة ؟

ـ بالتأكيد يمكنني .

ـ وهل يمكنك ألا تتركني وحيدًا ، فلتزرني كثيرًا .

ـ آتي بالتاكيد إن هذا واجبي في الأصل .

أحضر الطبيب عمر للأزناكي عمر مسبحة ، وشرح له عن الإسلام قدر ما يعرف ، ولكن مريضه كان يذوب يومًا بعد يوم ، لم يمر عدة أيام حتى انطلق صوت من إذاعة المشفى :

ـ أيها الطبيب عمر ! من فضلك الغرفة ذات رقم (٢١٧) . . .

وركض الطبيب الذي فهم أن شيئًا يحدث نحو الغرفة وعندما وصل كان المشهد الذي يراه ليس مطمئنًا أبدًا .

كان في يد الأزناكي عمر اليمنى سُبحة ، وفي ذراعه اليسرى يظهر وشم علم تركيا ، كان في تلك الوضعية يلتقط أنفاسه الأخيرة .

نجح الطبيب عمر في تلقين الأزناكي عمر الشهادة بجهد .

ولفظ هذا العجوز الأزناكي أنفاسه الأخيرة وهو مسلم على حضن الطبيب عمر .

لم يمكنه فعل شيء ، كان هناك مثالاً بقي بعد هذه الحادثة .

كانت حلية تحاول مسح دموعها وهي تكتب هذه الجملة :

« افعل خيرًا وارمه في البحر إن لم يعلمه السمك فسيعلمه الخالق » .

* * *

فلنقبل أيها السادة :

انهزمنا !...

تلك الأرض ساحة العصر ،

لا يحب القلب أي ساحة ،

قلبكم غطاء مرتب ،

أعطي أيها المدرب الميدان للبطل ،

هنا شارب هنا ،

الأخ الحبيب الأخ الكبير مصتفين ،

في الأزيز عند الشاي حطب ،

ميدان الخمر في أرض الروم ،

فالتنظر إلى الأمس ،

ما الذكريات القادمة . . .

في المضيق الضيق تشنكلة ،

أصعب ميدان في التاريخ !

نيازي يلدرم غنتش أوسماناوغلو

* * *

المجموعة التي ضاعت في أنافارتالار

كان مرتجان يتابع عجز قوات الأعداء بكل استمتاع .

كان العدو في يوم ٢٥ نيسان يعمل على الدخول إلى غاليبولو ولكن كل المداهمات تصدا لها العساكر الأتراك ، ورغم مرور أشهر فلم يتحقق نجاح يُذكر ، وفوق هذا فقد فُقد الآلاف من الجنود ، في هذه الحالة كان الجنرال هاميلتون في وضع صعب ، كان شرح هذا الوضع لمجلس اللوردات الإنكليز ، وبينما كان هاميلتون يلعب آخر أوراقه الرابحة قال هذه الكلمات في حديثه لمجلس اللوردات :

ـ أيها اللوردات المبجلين ،

أسلم عليكم من قلبي الإنكليزي بكل حماسه ، تعلمون أننا نعمل على الدخول إلى تشنكلة منذ (٣) تشرين الثاني ١٩١٤ ، هناك العديد من الدول الصديقة مثل فرنسا التي معنا ، وتعلمون جيدًا أن هدفنا الأساسي هو الاستيلاء على إستنبول ، ولكن حتى يومنا هذا. . . . اتركوا إستنبول فإننا لم ندخل إلى تشنكلة ، إن الجيش التركي ورغم أننا نزدادهم عددًا وإمكانيات أكثر فإنهم يصمدون بشكل عجيب ، ولن أكون مبالغًا إن قلت أن هناك مئات الآلاف من

العساكر يقتلون من كلا الطرفين ، ويتقدمنا العساكر الأتراك بخطوة كان هذا بسبب المعرفة الجغرافية أو بسبب الدفاع المتين .

أود أن أعطيكم البشرى بأن هذا الوضع لن يدوم ، إننا متأكدون من أن الضربة التي سنضربها مع القوات التي سنضمها لنا بأنها الضربة الأخيرة ، نعم نريد منكم قواتًا جديدة لجيشنا .

إن القرار قراركم ، إما تدعمون بقوات جديدة ونحن بدورنا نقدم النصر لكم كهدية ، أو أنكم . . .

ابتلع عاميلتون هنا ريقه مرة أو مرتين ، كان من الواضح أن ما يمر في عقله شديد ، لكن عليه أن يتكلم :

ـ وإما أن تصبح إنجلترا العظيمة مسخرة قبالة حفنة من العساكر الأتراك !

استمع لهاميلتون من قبل مجلس اللوردات بكل اهتمام ، وكان بالنسبة لهم ايضًا خسارة انجلترا للحرب أمرًا غير مقبول أبدًا ، قُبل طلب هاميلتون ، وأعطي فرصة أخرى ، وتحركت القوات الجديدة في تاريخ ٢٩ تموز ١٩١٥ نحو تشنكلة .

كانت الوحدة الجديدة التي أعطيت بأمر من هاميلتون تسمى بكتيبة نورفلوك الملكية ، وكان ينتظر من هؤلاء الجنود الجيدون أن يُغَيِّروا من مسار الحرب ، فلننظر ، هل تحقق ما كان يُنتظر ؟

كان مرتجان يتابع كتيبة نورفلوك الملكية خطوة بخطوة .

كان هدفهم أن يستولوا على هضبة ٦٠ ، كانوا يقولون « إذا أخذنا هذا المكان فلابد أن تفتح طرق إستنبول لنا » .

شحنت المجموعات الإنكليزية في ١٩ آب إلى المنطقة .

كان هاميلتون قد عُين لفتح طريق كتيبة نورفلوك بطابور أمامي .

كان المكان الذي كانوا يتواجدون فيه ممتلىء بالطين ، والجو حار جدًا ، لم يرح البعوض وجوه العساكر ، وكان يبدو عليهم وكأنهم سَيُسَلِّمون رايتهم قبل مقابلة العساكر الأتراك ، كانت شروط الأرض صعبة لهذا الحد .

خطر مزحة على رأس مرتجان ، تداخل بين العساكر الإنكليز ، وأخذ يدغدغ عسكريًا كان قد لفت نظره ، وسرعان ما وقع ضاحكًا على الأرض ولكنه لم يكن الوحيد فقد رأى أصدقائه يقعون ضاحكين فجأة ، وبعد قليل تحول الضحك إلى قهقهة ، أخيرًا تمكن العسكري من التوقف عن الضحك بعد أن ضربه القائد كفًا قويًا .

أخيرًا تحركوا ، كان قسم ١٦٣ من كتيبة نورفلوك يتقدمونهم حسب الأوامر ، وقبل أن يتقدم كيلومتر واحد تفرقوا برصاص العساكر الأتراك ، لم تستطع الكتيبة التي خسرت العديد من عساكرها أن تتقدم ولو لخطوة ، ولكن القسم ١٦٣ الطابور (٤) يتقدم بلا

عوائق ، وحسب ما يبدو فلم ينتبه لهم العساكر الأتراك ، كانت الوحدة ١٠ ضباط و٢٥٠ عسكر على وشك أن تخنق الأتراك بعد قليل بالتفافها من الخلف ، وكان هذا ما أراده الجنرال هاميتون .

كان مرتجان سيبلغ لسانه الصغير بعد المشهد الذي رآه ، كان قد رآى العديد من المواقف ولكنه لم يشهد شيئًا كهذا ، ولم يكن يعتقد أنه سيرى بعد ذلك شيئًا مثله .

كان الطابور الرابع يدخل متبخترًا من الطريق الذي فتح أمامهم ، ولكن أحدًا منهم لم يكن يعلم أن المكان الذي جاؤوا إليه هو طبقة من الغيوم ، ومن يدخل إلى هنا لا يخرج أبدًا ، وفي النهاية ارتفعت الغيمة بما فيها من عساكر نحو السماء ! ولم يعرف عن هؤلاء العساكر شيئًا ، وحكى الناس قصتهم بعد أعوام بعد أن سُجّلوا كـ « ضائع » على أنها أسطورة .

حتى أن بعض المهاجرين الأستراليين شهدوا الحدث قالوا في المراسم التي أقيمت بعد سنوات أن ما رأوه كان حقيقة ، حتى أنهم كتبوا مقالات ووقعوا أسفلها .

حتى أنه لم يحصل أحد على معلومة عن العساكر الضائعين بعد الأبحاث التي أجريت بعد عدة أعوام ، لقد قيل أن العساكر الضائعين الإنكليز قد محوا من قبل الأتراك ، ولكن هذا لم يكن صحيحًا ،

الحكومة التركية قالت بشكل قطعي أنه لا يوجد شيء كهذا .

وإلى هذا اليوم صدق الأتراك أن هذا السر لا يعلمه إلا الله ، وأن الله العظيم أحضر هؤلاء العساكر لمساعدة المسلمين ، الجنرال هاميلتون فشل مرة أخرى ، في التلجراف الذي حصلت عليه رئاسة الحرب الإنكليزية اعترف بفشله ، ولكنهم أظهروا أن سبب هذا الفشل هو أن أمورًا فوق الطبيعة قامت بالقتال مع الأتراك .

تبسمت مرتجان عندما قرأت جملة رئيس البحرية الإنجليزي بعد سنوات « نحن في تشنكلة لم نتقاتل مع الأتراك ، بل تقاتلنا مع الله ، وبشكل طبيعي خسرنا » .

كتبت مرتجان على دفترها إثر هذه الجملة :

« من يقوم لمحاربة الله ستكون نهايته الخسارة » .

* * *

فلنقبل هذا أيها السادة

لقد لبينا خدمتنا

لقد فرحت مرتجان بالخبر الذي سمعته في ٧ من تشرين الثاني عام ١٩١٥ .

دقق رئيس الحربية الإنكليزي جيدًا في الوضع الذي هم بداخله ، فوق عشرات الهجومات التي فعلوها لم يستطيعوا تخطي تشنكلة ، وبهذا وقعت آمالهم في الحصول على إسطنبول في الماء ، فعرض الأمر مرة أخرى على السلطات العليا في اجتماع ، وسأل القادة :

ـ كيف ترون مستقبل هذه الحرب القاسية ؟

حدث صمت غريب أولاً ، وكأن الجميع كان يقول لا نريد أن نعطي جوابًا ، ثم أخذ حق الكلام قائد وقال :

ـ إذا كان الأمر علي ، فأنا أقول فلنقاتل حتى النهاية

ـ ومع أننا نعلم أنه لن نحصل على نتيجة ؟

ـ سَيُكْسَر عناد الأتراك يومًا ما مهما كان

أراد القائد أن يأخذ رأي القادة الآخرين أيضًا ، فأخذ حق

الكلام قائد آخر وقال بصوت مرتعش :

ـ فلنتقبل هذا يا سادة ، لقد هُزمنا .

وبعد هذا القادة الذين أخذوا حق الكلام قالوا أشياء تشبه هذه الجملة :

ـ إذا أكملنا الحرب سنخسر كل عساكرنا .

ـ لقد خسرنا حتى الآن أكثر من ٢٥٠ ألف عسكري .

ـ إذا كان هذا فحلنا الوحيد . . .

قال رئيس الدفاع مغلقًا الاجتماع :

ـ إذا كان هكذا فحلنا الوحيد هو الانسحاب .

وبعد أن أخذ الإنكليز هذا القرار الذي بدأ في ٧ تشرين الأول عام ١٩١٥ استمر إلى ٨ تشرين الثاني عام ١٩١٦ .

كانت مرتجان ترى أن حروب تشنكلة تنتهي ، كان يعتقد العدو أن من حقه بعض المشاكل التي فعلها أثناء انسحابه ، كان هناك عصر عملاق ينتهي .

كان نصر تشنكلة ، نصرًا ذهبيًا في تاريخ الملة المسلمة التركية ، وكم كانت الجملة التي أخرجتها مرتجان من قلبها الشاب مليئة بالمعاني :

« تشنكلة ، كانت ملحمة بطولة عجنت بإيمان العساكر الأتراك » .

العدو يهرب !

كان مرتجان يستمع لأحاديث قواد العدو في إحدى المقرات :

ـ خسرنا حرب جونكباير في ١٠ آب .

ـ ولم نستطع الدخول إلى تشنكلة عبر البرّ .

ـ وفي ١٣ آب هُزمنا مرتين في أنافاراتلار .

ـ ليس هذا فحسب فقد هُزمنا في ١٧ آب للمرة الثالثة على التوالي في أنافاراتلار .

ـ في ٢٢ آب استمرينا بـ٦ أقسام . . .

ـ والنتيجة نفسها هزيمة وراء هزيمة . . .

ـ استوعبنا ذلك الآن لقد خسرنا هذه الحرب !

ـ إذًا فعلينا فعل أمر واحد فقط . . .

ـ ما هو ؟

ـ علينا الانسحاب قبل فوات الأوان !

ـ صحيح ما قلت ، أوافقك الرأي فلم يبقى لدينا حل آخر .

ـ أوافقكم الرأي . .

ـ أوافقكم الرأي . .

لم يعرف مرتجان ما عليه فعله من فرط السعادة .

وأخذ يصرخ وهو يضم يده كقبضة :

« ما الذي تفعلونه هنا ؟ »

« ألم نخبركم أن تشنكلة لا تُهزم ؟ »

« فلتسيروا نحو بيوتكم بسرعة ! »

« اذهبوا ولا تعودوا مرة أخرى ! »

كان التاريخ يبدو على التقويم ٧ تشرين الثاني عندما قرر العدو الإنسحاب .

في هذا التاريخ حدثت عملية المغادرة من تشنكلة .

وصنعت خطط الهرب بتكتم كبير وسرية .

وضعت عارضات بلباس عساكر بدل الجنود في المدرعات ، وعمل على أن تطلق البندقيات التي علقت على أكتافهم بوقت معين ، وهكذا سيلتهي الأتراك .

ترك الإنكليز خلال هجوم في ١٩ كانون الأول ١٩١٥ منطقة سد

البحر وفي نفس الليلة أنافارلار ـ اربورنو ، وأفرغت منطقة سد البحر في تاريخ ٨ كانون الثاني ١٩١٦ .

كان أفضل ما فعله العدو في حروب تشنكلة هو الهروب منها ، قاموا بعملية المغادرة بشكل جيد لدرجة أن الأتراك لم يلاحظوا عملية هروب ٤٠٠ قنبلة تقريبًا و١٣٤ ألف جندي إطلاقًا .

* * *

المغامرة على وشك الانتهاء

لا تظنوا أنها مجرد لعبة . . .

أنهم رواد وقت الحساب ،

إن أعمار الأولاد عصر الموضة ،

العين تعرف الصديق من العدو .

يوسف دورسن

يتجمع المشاغبون

لم يكن يتسع مرتجان في داخله ، ألم يرى هروب العدو فما الأجمل من هذا ؟ بحث بعينيه المليئة بتلك المشاعر عن أصدقائه .

كان هناك سكون في الجو ، هل هذا شيء جيد يا ترى ؟ تذكر الجملة التي تزيد من حماس أعماقه :

« فلنقبل أيها السادة أننا خسرنا الحرب ! »

هذه الجملة تعني أن الحرب قد انتهت ، انتهت الحرب وعاد العدو من حيث أتى ، يجب أن يكون هذا هو سبب السكون والرقود

الذي كان يعم المكان ، كان هذا يُعد أن مهمة المشاغبين قد انتهت ، نظر إلى ساعته ، وفعلاً عليه أن يتواجد في مكان اللقاء بعد عدة ثوان .

توجه إلى المكان اللقاء قائلاً « الله أكبر » ، ووجد نفسه فجأة في المكان الذي افترقوا فيه .

مرت ٢٤ ساعة ، وكان التقويم يُظهر تاريخ ٤ تشرين الثاني ١٩١٤ ، كان المكان الذي يتواجد فيه هو قرية أرتغول ، هنا هجم الإنكليز والفرنسيين هجمتهم الأولى ، كانت أصوات القنابل الشديدة عالقة في ذاكرته ، لم تفارق عينيه مشاهد الشهداء وسط الدماء ، لكن هذه الأرواح لم تذهب سدى ، فقد عاد العدو الذي حاول العبور عبر تشنكلة من حيث أتى .

أخذ مرتجان يفكر في صديقيه كان عليهما أن يكونا هنا ، وقبل أن يسأل : أين هم ؟ كانوا قد أتوا .

الآن غرق الأصدقاء الثلاثة في الأحاديث .

كان كل منهم يشرح لأصدقائه ما شهد من أحداث ، كان في أغلبها أحزان ، ولكن النهاية جميلة ، فالعساكر الذين متوسط أعمارهم ٢١ لم يسمحوا للعدو بالعبور ، لفت نظر آتاكان رقم ٢١ ، وقال :

ـ هل تعلمون يا أصدقاء أن السلطان محمد الفاتح عندما فتح إستنبول كان عمره ٢١ .

داعبت هذه الحقيقة غرور المشاغبين ، إنهم سيصبحون في هذا السن بعد فترة قصيرة ، لم يكن لديهم متسع من الوقت لتحقيق أعمال عظيمة ، قال آتاكان :

ـ أيها الأصدقاء إن هذه الرحلة أفادتني كثيرًا ، سأصبح من الآن فصاعدًا مجتهدًا ومنضبطًا ومخططًا أكثر .

قالت حلية :

ـ إنني أفكر بنفس الأمر ، وتابعت : رأيت بعينيَّ كيف حاربت كل بقاع العثمانية لأجل هذا الوطن ، شهدت كيف ـ من الغرب إلى الشرق من الشمال حتى الجنوب ـ تكاتف أبناء الوطن وركضوا نحو الموت .

وكانت مشاركة مرتجان في الحديث كالآتي :

ـ رأينا مجددًا كيف أن وطننا واحد ، هذا نصر الحجر والتراب والمرأة والرجل والعجوز والشاب كل الأمة على حد سواء ، فهمت أن بحركتنا سويًا لا تغلبنا أي قوة .

أخرج آتاكان دفتر ملاحظاته وكتب تلك الجملة :

« لقد فازت الأمة التركية بنصر تشنكلة بعشق الوطن والإيمان » .

أما جملة مرتجان التي كتبها على دفتر ملاحظاته كانت كالآتي :

« إن تشنكلة هي المكان التي انتصرت الأمة التركية بحرب الموت والبقاء فيها » .

كان عقل حلية يفكر بأمهات الشهداء الأطفال ، والجملة التي كتبتها كانت تعبر عن مشاعرها :

« إن النصر لنا مادام هناك أمهات تربي أبنائها على التضحية بأرواحهم فداء الوطن » .

* * *

المشاغبون في طريق عودتهم

كانت أحاديث المشاغبين ستطول ، حتى قال آتاكان :

ـ أصدقائي ألا توافقوني بأن وقت العودة قد حان .

وفهم ثلاثتهم أن مهماتهم قد انتهت ، كان وقت العودة عبر النفق للذهاب إلى مكان معيشهم وزمانهم مجددًا قد حان .

كيف سيحدث هذا ؟

تذكروا كيف جاءوا إلى هنا ، وفكروا في البوصلة التي لِجَدِّ حلية .

أخرجت حلية البوصلة بسرعة ، ولم يكن على البوصلة إشارة أو ضوء ، وكان الوقت يمر من غير أن يتحقق ما ينتظرونه .

جرب البوصلة آتاكان ومرتجان ، والنتيجة واحدة ، لا حركة تذكر في البوصلة .

قال آتاكان :

ـ قبل أن آتي إلى هنا وجدت نفسي في نفق الزمن بعد أن قرأت الكلمات البارزة على البوصلة « الله أكبر » .

إذًا فيجب أن يكون هناك شيء مشابه ، على البوصلة أن ترينا الطريق .

انحنت حلية بعد أن قالت ـ معك حق ، ثم أكملت تقول :

ـ هل نحن في المكان والزمان الصحيح يا ترى ؟

قال مرتجان :

ـ إنني متأكد من أننا في الزمن الصحيح ، لأن الحرب قد انتهت ، وهذا يعني أن وقت العودة قد حان .

قال آتاكان :

ـ إذًا فهل نحن في المكان الصحيح ؟ فلنفكر بهذا . . . إن مكان تواجدنا هو مكان بداية الحرب . . .

قال مرتجان وحلية في نفس الوقت :

ـ نعم هذا هو المكان الذي بدأت فيه الحرب .

قال آتاكان بحماس :

ـ إذًا فلنذهب إلى مكان انتهاءها !

ـ مكان انتهاء الحرب ؟

ـ اه طبعاً ، علينا الذهاب إلى المكان الذي انتهت الحرب فيه .

ـ أين كان مكان انتهاء الحرب ؟

رد مرتجان دون أي تفكير :

ـ إن الإنكليز انسحبوا في بداية الأمر من أنافارتلار .

كانوا قد وجدوا الجواب المنتظر ، تحرك ثلاثتهم نحو اتجاه واحد ، وبعد بضع ثوان كانوا قد وصلوا إلى أنافارتلار .

وكانت المدرعات هي أول شيء لفت نظرهم ، كانت مدرعات الطرفين قريبة جدًا من بعضها البعض ، كانت المسافة التي تفصلهما لا تتجاوز ٨ أمتار ، كانت الحرب قد انتهت ، وكان العدو قد غادر تشنكلة ولكن لا تزال المدرعات مخيفة بالنسبة للناس ، لكن خوف المشاغبين لم يكن من المدرعات ، كانوا يخافون من أن يعلقوا في الزمن الماضي .

أخذت حلية تتفحص البوصلة من جديد ، لم يكن هناك شيء مذهل ، لم يتحقق الشيء الذي ينتظروه ولا بأي طريقة ، بدأوا يقلقون ، حتى أن حلية توترت لدرجة أن البوصلة وقعت من يديها المرتجفتين ، ومع وقوعها على الأرض بدأت إشارة بالخروج من الأرض ، وصار المشاغبون في حماس كبير ، كان صوت الإشارة قادم من التربة ، ولكن لا صوت أو ضوء من البوصلة ، فلم يحتمل مرتجان وقال :

ـ فلنحفر مكان الإشارة !

ـ فكرة جيدة ،

بدأ الشباب يحفرون مكان وجود الإشارة ، كانت التربة طرية كأنها تبللت في الأمس ، رأوا اللون الأحمر الدامي مع الحفر ، لم يفاجئهم أن تأخذ تربة الساحة التي أهدرت فيها ٦ آلاف من الرصاص لون الدم ، تحمس المشاغبون بعد أن تابعوا الحفر بما وجدوه ، كان يقابلهم بوصلة ، وبجانبها مباشرة قطعة ورق مجعدة . . .

انحنى مرتجان بكل حماس وأخذ البوصلة ، وكما يبدو كانت عادية ، وبينما كان المشاغبين يفقدون الأمل بالنظر يمينًا وشمالاً أصلح آتاكان من شأن الورقة وبدأ يتفحصها بدهشة ، كان على الورقة كتابة من الواضح أنها كتبت على عجل :

« روحي فداء لك يا وطن ! »

فكر المشاغبين أن هذه الجملة ستفتح لهم الطريق ، ونظر بعضهم إلى بعض ، وتفاهموا عبر النظر .

وتماسكوا بأيدي بعضهم وصرخ ثلاثتهم بأعلى صوت :

ـ روحي فداء لك يا وطن !

كانت هذه الجملة هي الجملة الأخيرة التي استخدمها المشاغبون في الزمن الماضي .

بدأت رحلة العودة عبر النفق ، حتى أنهم لم يفهموا كيف مرت الرحلة كيف عادوا إلى زمانهم ومكانهم ، كيف دخلوا إلى المدفعية التي صنعها السلطان عبد الحميد الثاني .

كأن شيئًا من تلك الأحداث لم يحدث .

وكأن الرحلة التي عاشوها عبارة عن محض خيال .

كان يجب معرفة إن كان ما عاشوه حقيقيًا أم لا ، ونظر الثلاثة إلى دفاتر ملاحظاتهم ، لا لم يكن ما عاشوه مجرد مغامرة خيالية ، كانت دفاترهم مليئة بما كتبوه بالرحلة الزمنية إلى الماضي .

ولمعت نظراتهم مجددًا ، ونظروا إلى بعضهم بكل غرور .

قال آتاكان :

ـ دعونا لا نخبر أحدًا بما عشنا .

وعندما قال مرتجان :

ـ لم قلنا لما صدقنا أحد

قالت حلية بصوت منخفض :

ـ فليكن هذا سرّنا ،

ربما لم تكن تود أن يسمعها أحد .

وسُمع صوت السيد برام بعد قليل :

ـ هيا يا أطفال نحن ذاهبون ، يوجد العديد من المناطق التي سنزورها .

كانت رحلة تشنكلة تمر كما خُطط لها .

وكان من الأطفال من اكتفى بالمشاهدة ، ومنهم من لم ينزع رأسه من الجوال حتى .

وبعضهم من ترك المجموعة الأساسية وأخذ يتجول كاثنين أو ثلاثة ، وفي النهاية حان وقت رحلة العودة .

كان الجميع متعبًا ، ومن جهة أخرى كانوا فخورين كونهم أحفاد هذا التاريخ الحافل .

وقرأ الشيد فاتح على طلابه شعر عشق كما وعدهم ، ثم أراد من الطلاب أن يعيدوا آخر أربعة أبيات من الشعر ، وهم نفذوا ذلك بكل سعادة ، وكانت الأبيات الأربعة الأخيرة كالآتي :

« إن ما يسمى بالعشق هي جمرة نار ،

عليها أن تحرق ما تلمسه ،

إن عين العاشق وحيدة ،

عليه أن ينظر إلى حلاله »

وأمّا أكثر إرهاقًا كان السيد برام والسيد فاتح ، فلم يرتاحوا حتى

أوصلوا الأطفال إلى بيوتهم عندها تنفسوا الصعداء .

جمع المشاغبون ما كتبوه وقصّوه وأعدوا الواجب جيدًا ، ووضعوا عنوانًا لواجبه :

تشنكلة باب الجنّة

أعجِب بعلمهم بشكل كبير ، ورضي السيد برام عنهم أيضًا بعد أن حصلوا على العلامة التّامة من درس العلوم الاجتماعية .

وأما الفائدة الأكبر فكانت فهمهم بحقيقة « باب الجنّة » التي عرفوها .

* * *

المراجع

أبوهان ، رجب شكرو : تشنكلة لا تُقهر ، منشورات تيماش ، إستنبول ، ٢٠٠٨ .

ارسلان ، مصطفى : إحياء روح تشنكلة ، منشورات اكتشا ، انقرة ، ٢٠٠٩ .

آسيا ، عارف نهاد : الأدعية والآمين ، نشريات أتوكان ، إستنبول ، ١٩٩٩ .

أتـاك ، علـي عثمـان : تشنكلـة لا تقهـر ، دار نشـر داملـة ، إستنبول ، ٢٠٠٤ .

بيلغين ، إسماعيل : الذاهبون إلى تشنكلة ، BKY ، إستنبول ، ٢٠٠٩ .

بوز ، اكرم : ذكريات تشنكلة خطوة بخطوة ، النشر الخاص ، إستنبول ، ٢٠٠٦ .

تشاكر ، أستاذ دكتور عمر : رسائل تشنكلة ، منشورات بلدية بولاتلي ، انقرة ٢٠١٢ .

تشاتين ، صلاح الدين : بحث حول الحرب في تشنكلة ، نشر خاص ، إستنبول .

دورسون ، يوسف : روحي أناضولي ، منشورات غونجا ، إستنبول ٢٠١٢ .

دورسون ، يوسف : جغرافيا القلب ، منشورات نور ، إستنبول ، ٢٠٠٩ .

أرسافاش ، فخري : تشنكلة تشنكلة ، منشورات بيلغواز ، إستنبول ، ٢٠١٠ .

أرصوي ، محمد عاكف ، (المعد : مستر . أرتغول دوزداغ) ، نشريات أثر ، إستنبول ، ١٩٩١ .

غانتشاوسماناغلو ، نيازي ، برج دستانلار .

سهم السماء ، أورهان شايك ، لمن هذا الوطن ؟ ثانوية التركمان الخاصة ، سهم السماء ١٩٩٤ .

كاراجا عثمان ، كل حياة كانت ملحمة ، منشوراته .

مالتبيه ، حسين : القيم المدفونة في القلب ، منشوراته ، تشنكلة ٢٠٠٦ .

مالتبيه ، حسين : الناجحون بخسارتهم ، منشوراته ، تشنكلة ٢٠٠٦ .

مات ، جلال : محاربات الأرتاك في تشنكلة ، منشورات اكتشا ، أنقرة ، ٢٠٠٧ .

أوزدامير ، محمد نيازي : محشر تشنكلة ، منشورات أتوكان ، إستنبول ١٩٩٩ .

ساغلام ، فدات : عاد الأب والأم ، منشورات نار ، إستنبول ، ٢٠١٢ .

ساغلام ، فدات ، من اشترى حريته ، منشورات نار ، إستنبول ، ٢٠١٢ .

شانال ، كوانتوم تقنية الفكر ، منشورات ليديبيردز ، إستنبول ، ٢٠٠٨ .

تزجان ، غولجان : تشنكلة من ألسنة المنتصرين ، منشورات يارمادا ، إستنبول ، ٢٠٠٧ .

توجان ، أردوغان : المقدم سعيد ، منسورات السعادة ، إستنبول ، ٢٠١١ .

قوات البحرية التركية : اختيارات من مذكرات ألف عام ، إستنبول ، ٢٠٠٩ .

أغورلول ، طلحة : حروب تشنكلة ودليل النصر ، منشورات المراجع ، إستنبول ، ٢٠٠٤ .

يازغان ، باستامي : علقنا قلوبنا على النجوم ، منشورات نار ، إستنبول ، ٢٠١٠ .

مجلة يوزاك : ٦١ . رقم إستنبول ، مارس ٢٠١٠ .

* * *

يوسف دورسون

كاتب ولد في يوزغات موسابايلي عام ١٩٤٩ ،

عام ١٩٦٨ مدرسة يوزغات للتعليم ،وفي ١٩٧١ قسم التركي في أرضالروم ، أنهى تعليمه الجامعي في جامعة أناضول في عام ١٩٩١ في عام ١٩٩٦ تقاعد من التدريس في قسم اللغة التركية والأدبيات .

ولديه العديد من الجوائز الشعرية ، ودخلت بعض أشعاره كتب التدريس ، وصاحب « جائزة أدب الطفل » عام ٢٠٠٩ من مؤسسة آسكادير (مؤسسة بحوث الأدب الثقافي) يوسف دورسون يكمل خدمته للأدب التركي بآثاره في الشعر والحكاية والرواية .

الأعمال الناتجة عن منشورات نار :

١ـ قلبي بيت العصفور (شعر ٢ . الطبعة ، ٢٠٠٦ .)

٢ـ أصدح صوت ـ نشيد الاستقبال (رواية الطفل ، الطبعة ٩. ، ٢٠٠٦ .)

٣ـ جغرافية القلب (شعر الطبعة ٢. ، ٢٠٠٧)

٤ـ تعال بالمستقبل (شعر الطبعة .٣ ، ٢٠٠٧)

٥ـ حكاية الطبيب في حديقة الحب ، (حكاية ، الطبعة .٢ ، ٢٠٠٩)

٦ـ حكاية الطبيب في البحث عن المذنب ، (حكاية ، الطبعة .٢ ، ٢٠٠٩)

٧ـ حكاية الطبيب في بلد السعادة ، (حكاية ، الطبعة .٢ ، ٢٠٠٩)

٨ ـ كرة العصفور ، (حكاية ، الطبعة .٢ ، ٢٠٠٩)

٩ـ الحذاء الطائر ، (حكاية ، الطبعة .٢ ، ٢٠٠٩ .)

١٠ـ العصفور الصغير ،(حكاية ، الطبعة .٢ ، ٢٠٠٩)

١١ـ أصبحت السلطان فاتح (رواية ، الطبعة .٦ ، ٢٠٠٩ .)

١٢ـ أرسلان ألب سلطان فاتح الأناضول (رواية ، الطبعة .٤ ، ٢٠١١ .)

١٣ـ إنّ إستنبول لؤلؤة (رواية ، الطبعة .٩ ، ٢٠١١ .)

١٤ـ طفولة سوب (رواية ، الطبعة .٣ ، ٢٠١٤ .)

١٥ـ أجنحة فاتح (رواية ، الطبعة .٣ ، ٢٠١٣)

١٦ـ أبي وحيد لا مثيل له (أشعار الأب ، ٢٠١٦)

١٧ـ للصغار البيض (رواية ، ٢٠١٦)

١٨ـ مامش (رواية ، ٢٠١٦)

١٩ـ كثير الشعر (رواية ، ٢٠١٦)

٢٠ـ الطبيب الذاهب (رواية ، ٢٠١٦)

٢١ـ تاتوش (رواية ، ٢٠١٦)

٢٢ـ الأرنب الصغير مع المعازي الصغيرة (رواية ، ٢٠١٦)

* * *

المحتويات

عصير عنب بلا سكر 5
بوصلة جدي الكبيرة 10
تبدأ الرحلة 14
غاليبولي 18
رحلة العودة بالزمن 26
تهليلات النصر 28
هل تمَّت التجهيزات 31
في وسط المعركة 33
أحلام تشورتشيل 37
الرقيب يحيى أزينلي 40
السياسة في العالم 43
السياسة العثمانية 48
إعلان الجهاد الأكبر 51
حسن المحنى (١) 55
حسن المحنى (٢) 62

جيش الشخصين 68
سفينة الألغام نصرة ضد الأسطول البحري الذي لا يقهر 73
سفينة الألغام نصرة في طرسوس 78
النصر الكبير : ١٨ آذار ١٩١٥ 81
العريف سعيد 84
لم ننجح من جهة البحر فلنجرب جهة البر 89
من يأذن هذا الأذان 94
الحق يا رسول الله صلى الله عليك كتابك يضيع 98
لماذا كلفت نفسك العناء يا رسول الله 101
أنا آمركم بالموت 106
مصطفى ابن عمر الذي من بوباتلي 110
العريف مستجيب 114
حتى على المستشفيات سكبوا القنابل 117
الجزء الثالث ـ معبر الأبطال 120
هل من السهل أن تكون (شفيقة)؟ 121
فاطمة السوداء 129
إذا جاء والدك 134
عائشة الصغيرة 136
لقد دفع هذا الحساب بدم أحمد رفقي 142

سيدفع الثمن في تشنكلة 146
أطفال تشنكلة الشهداء 150
الرسالة الأخيرة لشهيد تشنكلة 155
رسالة القائد الشهيد الأخيرة 159
الأكفان النظيفة 162
احترام العساكر الأتراك بعد الحرب بـ ٢٥ سنة 164
عسكري أنزاكي في تركيا بعد ٣٠ عامًا من الحرب 167
بعد الحرب بـ ٤٢ عام 172
انهزمنا 178
المجموعة التي ضاعت في أنافارتالار 179
فلنقبل أيها السادة 184
العدو يهرب! 186
المغامرة على وشك الانتهاء 189
المشاغبون في طريق عودتهم 193
المراجع 200
يوسف دورسون 204
المحتوى 207